2274
.423
.361

2274.423.361
Rifā'ī
Mahāsin al-Islām

DATE ISSUED	DATE DUE	DATE ISSUED	DATE DUE

Princeton University Library
32101 074497155

علي رفاعي
مفتش الوعظ بالأزهر

محاسن الإسلام

الطبعة الرابعة
١٣٧٤هـ — ١٩٥٥م

الناشر
مكتبة الخانجي بمصر
ومكتبة المثنى ببغداد

Rifāʿī, ʿAlī
III

محاسن الإسلام

Maḥāsin

تأليف

علي رفاعي

مفتش الوعظ بالأزهر

الطبعة الرابعة

جمادى الآخرة سنة ١٣٧٤هـ — ١٩٥٥م

الناشر

مكتبة الخانجي بمصر

مطبعة الاعتماد بمصر تليفون ٤٥٥٤٥
شارع جنن الأكبر - عابدين

مقدمة الطبعة الرابعة

بسم الله الرحمن الرحيم

أحمدك ربى شرحت صدور المؤمنين وزينت الإسلام فى قلوب الموحدين ووفقتنى مع ضآلة معلوماتى لنشر محاسن دينك بين جماعة المسلمين: الذين يشق عليهم مطالعة الكتب الكبيرة . فسهلت لى ولهم سبل الاطلاع فى يسر وانشراح نفس : والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذى بعث بالاسلام : دين المحبة والسلام وبعد

فهذه هى الطبعة الرابعة لهذا الكتاب الذى نفذت كل طبعاته السابقة بمجرد ظهورها .

وقد قام بطبعه هذه المرة الشاب الأديب الذى يعمل على نشر كتب الاسلام الأستاذ محمد نجيب الخانجى أحسن الله جزاءه وأثابه فى الدنيا والآخرة — أسأل الله أن ينفعنى بما علمت ويعلمنى ما أجهل ويهب لى الإخلاص والتوفيق إنه نعم المولى ونعم النصير .

2274
.423
.361

تصدير الكتاب فى طبعته الثانية

بقلم حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير الشيخ أحمد حميدة

عضو جماعة كبار العلماء

حمداً لله تعالى الذى تفضل بحفظ دينه القويم ، وأنار سبيل الهدى لعباده ، فبادر إلى سلوكها أهل البصيرة والتدبر . وصلاة وسلاما على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم سيد الأنبياء والمرسلين ، القائل وقوله الحق « لاتزال طائفة من أمتى قائمة بأمر الله لايضرهم من خالفهم حتى يأتى أمر الله » وعلى آله وأصحابه أجمعين .

أما بعد : فإن الله تعالى قد شرح صدرى للاطلاع على كتاب (محاسن الإسلام) لفضيلة الأستاذ النابه الشيخ على رفاعى مفتش الوعظ بالأزهر الشريف ، فشكرت لفضيلته ما يأتى :

(١) قد تخير الطرق الصالحة والأدلة الواضحة فى بيان المبادىء الإسلامية ، ليظهر للناس محاسن الإسلام بيضاء ناصعة .

(٢) يسوق للقارىء عند ذكر المبدأ الإسلامى مقدمة وجيزة تفتح قلبه وتهيئه لقبول حكم الشريعة ، وبرهانه الذى يجىء حينئذ جلياً واضحاً .

(٣) قد يسوق فى سبيل هذا البيان من القصص ما يأخذ

بالقلوب ، ويشوق النفوس إلى أعمال البر والإحسان التى جاءت الشريعة لغرسها فى النفوس ، ليسود الهدوء بين الناس جميعاً ، وتتوثق الروابط بين بنى الانسان .

(٤) قد أحسن الأستاذ كثيراً فيما أرشد إليه فى القسم الثالث من كتاب محاسن الإسلام فأجاد فى بيان الأسس الصالحة لنظام الاجتماع الانسانى ، مع بيان العوامل الفعالة فى رقى الأمم وفلاحها ، مما لو وفق الله المسلمين للعمل به والتشبث بأهدابه لاستفادوا كثيراً ، واتحدت كلمتهم وعلا شأنهم .

هذه الخطة الصالحة هى بعينها الخطة التى جاءت بها النبوات وأرسلت لها الرسل ، وهى بعينها ما ينبغى أن يكون عليه ورثة الأنبياء وخلفاء الرسل ، يذكرون الناس بأسلوب حسن ، ويرغبونهم فى مكارم الأخلاق بطريقة تشرح الصدور وتحبب فى المكارم والآداب . فجزى الله الأستاذ على عمله هذا الذى أرجو من ورائه نفعاً عاما وقبولا حسناً خير الجزاء . والله تعالى يوفق الجميع لما فيه الخير والمصلحة ؟

مقدمة الطبعة الثالثة

بسم الله الرحمن الرحيم

« الذى خلقنى فهو يهدين . والذى هو يطعمنى ويسقين . وإذا مرضت فهو يشفين . والذى يميتنى ثم يحيين . والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين . رب هب لى حكما وألحقنى بالصالحين . واجعل لى لسان صدق فى الآخرين . واجعلنى من ورثة جنة النعيم . واغفر لأبى إنه كان من الضالين . ولا تخزنى يوم يبعثون . يوم لا ينفع مال ولا بنون . إلا من أتى الله بقلب سليم » . قرآن كريم من سورة الشعراء .

أحمدك إلهى ، جعلت الإسلام ديناً عاماً خالدا ، أخرجت به أمة من الظلمات إلى النور ، وبوأتها مكان العزة والكرامة ، فنشرت فى العالم مدنية فاضلة ، تحدث عنها من لا يؤمن بالإسلام ، وشعت حضارتها فى المغرب والمشرق ، فسعد العالم فى ظلها بالعدل والحرية والإخاء والمساواة .

والصلاة والسلام على سيد الأنبياء والمرسلين ، سيدنا محمد الذى بعثه الله هادياً ومبشراً ونذيرا ، وجعله خاتم الأنبياء ، وجعل دينه ناسخا لما قبله من الأديان . وشريعته صالحة لكل قوم فى كل زمان . أرسله على حين فترة من الرسل ، وجعل رسالته عامة

لجميع الناس ، لايختص بها قوم دون قوم ، فأوحى إليه « قل يأيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعاً » فقام بأمر ربه ، وجاهد فى الله حق الجهاد ، ونشر النور فى جميع الأرجاء ، وأحياء شريعة الأنبياء .. فصلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وأصحابه ، ومن سار سيرهم ، وسلك طريقهم فى القيام بواجب الدعوة إلى الله ، ونشر محاسن الاسلام ، وبيان مزاياه لعموم الأنام .

وبعد : فهذه الطبعة الثالثة لهذا الكتاب . فقد طبع لأول مرة ببنى مزار حين كنت واعظاً بها سنة ١٣٥٥ هجرية ، وطبع للمرة الثانية بالاسكندرية سنة ١٣٥٦ هجرية حيث نقلت واعظاً بها ، وقد نفدت الطبعتان بمجرد ظهورهما ، مما شجعنى على إعادة طبعه منقحاً مضافاً إليه من الأبواب مايشرح الصدر ويهدى للتى هى أقوم . وقد تخيرت له الجميل من الألفاظ ، والشريف من المعانى ، بحيث يجد القارىء فيه متعة النفس وغذاء العقل . فما يزال ينتقل من بستان إلى بستان ، ومن جمال إلى كمال ، حتى يشهد بحق أن الدين الصحيح الموافق لكل قوم والصالح لكل زمان هو الإسلام « ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه . وهو فى الآخرة من الخاسرين » .

والله أسأل أن يجعله ذخيرة لى يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم ، وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم ، وأن يعم النفع به ، إنه سميع مجيب .

عظمة فتى الصحراء

من الحق على قبل الخوض فى موضوع هذا الكتاب أن أذكر لك شيئاً عن عظمة سيد الوجود ، سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم .

ولئن كانت كل ناحية من نواحى هذا الرسول الكريم ميداناً متسعاً لكل من يريد الاقتباس من المحاسن ، ومحاسن المكارم ، فحسبى أن أذكر خلالا ، وأسوق للقراء خصالا بلغ فيها فتى الصحراء شأواً لا ينال .

والعظمة ليست بضخامة الأجسام ، ولا بكثرة المال ورفعة المناصب ، وإنما العظمة الحقيقية تتجلى فى الأخلاق والأعمال .

ولقد كان فتى الصحراء — صلوات الله عليه — عظيما فى أعماله سامياً فى أخلاقه ، كيف لا ، وقد كان خلقه القرآن .

اختطف الموت والده وما يزال جنيناً فى بطن أمه ، وتوفيت والدته ولما يبلغ السادسة من عمره ، ومع حرمانه من حنان الأم ورعاية الأب ، شب كريم السجايا ، جميل الخلق ، فخر أترابه ولداته حيلته الصدق والعفاف ، وشعاره كرم النفس والمروءة ولين الجانب والبعد عن السفاسف ، وهو الذى نشأ فى بيئة أمية ترى العظمة فى سفك الدماء ، وقهر الرجال وسلب الأموال ، وعبادة أحجار إن دلت على شىء فعلى خطل عقول عابديها ، وتوغلهم فى الجهالة .

اصطفاه الله لهداية الناس ، وبعثه رحمة للعالمين ، فقام يدعو قوماً جفاة تأصل الشر فى نفوسهم ، ومرنوا على الفساد ؛ قام يدعوهم إلى ترك عبادة الأوثان ، ويأمرهم بإخلاص العبودية لله رب العالمين ؛ فناصبوه العداء ، وأخذتهم العزة بالإثم ، وأقاموا العراقيل فى سبيل نشر دعوته ، وآذوه شديد الإيذاء ، فلم يوهن ذلك من عزيمته ، ولم يضعف من قوته ؛ بل قابل الشدة باللين ، والجفاء بالمودة ، فاستجاب له نفر انشرحت صدورهم لدعوته ، وعاهدوه على نشر كلمته ، والعمل على نصرته ؛ ولا تحسب هؤلاء النفر الكرام من الكثرة بمكان ، فوربك إنهم لم يبلغوا الثلاثين عدا ، ولكن « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله ، والله مع الصابرين » .

أقول لم يبلغوا الثلاثين ، ولكنهم قوم قد خالطت بشاشة الإيمان قلوبهم ، وشع النور فى بصائرهم ، فكبروا فى أرجاء العالم وأرسلوا كلمة التوحيد من أفواههم خالصة بها قلوبهم ، فدوت فى عموم الأنحاء ، وأضاءت ما بين المشرق والمغرب ، وأصبح أهلها بعد الضعف والقلة سادة الأمم وقادة الشعوب ، وأنشدوا من كتاب الله المجيد : « نصر من الله وفتح قريب ، وبشر المؤمنين » .

بعد تلك الكلمة الموجزة أعرض عليك ألوانا من عظمة سيدنا محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ، مقتبسا ذلك من أعماله الجليلة ، وسجاياه النبيلة .

وأنّى للقلم أن يصف أعمال الفرد العَلم الذى أخرج أمة من الظلمات إلى النور ، ونشر فى العالم مدنية فاضلة لا تسامى . ولقد يدهش المرء ويأخذه العجب حين يعلم أن نبينا صلى الله عليه وسلم لم يعمّر كما عَمر مَن قبله من الرسل الكرام ، بل ثلاثة وعشرون عاما قام فيها داعيا وهاديا ، فبدّل ما على وجه الأرض وغيّر نظام العالم إلى الخير والسعادة والهناءة .

أرأيت كيف أتى على عقائد القوم الباطلة ، وعاداتهم الآثمة ، فتركوا عبادة الأحجار ، وأخلصوا العبودية لله الواحد القهار ! .

وإن تعجب فعجبٌ قوم متفرقون شيعا وأحزابا ، يصبحون بنعمة الله إخوانا ، يفتحون الدنيا شرقا وغربا بقوة إيمانهم ، وشدة ثباتهم ، يجعلون الحق فوق رءوسهم ، والباطل تحت أقدامهم ، لايخافون غير الله ، ولا يرهبون سواه ، إمامهم القرآن ، وقائدهم إلى سبيل السعادة محمد عليه الصلاة والسلام .

عفوه عند المقدرة

هذا العظيم الذى جعل من العرب أمة دانت لها الأكاسرة ، وخضعت لها القياصرة ، وبوأها مكانة العزة والكرامة ؛ انظر إلى عظمته كيف يعفو عند قدرته :

ورد فى الصحيحين عن جابر رضى الله عنه « غزا مع النبى

صلى الله عليه وسلم قِبل نجد ، فلما قفل رسول الله صلى الله عليه وسلم قفل معهم ، فأدركتهم القائلة فى واد كثير العضاه (شجر له شوك) فنزل رسول الله صلى الله عليه وسلم وتفرق الناس يستظلون بالشجر ، ونزل رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت سَمُرة (شجرة الطلح) فعلق بها سيفه ونمنا نومة ، فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعونا ، وإذا أعرابى ، فقال : إن هذا اخترط على سيفى وأنا نائم ، فاستيقظت وهو فى يده صلتا (مسلولا) قال : من يمنعك منى ؟ قلت : الله — ثلاثا — ولم يعاقبه وجلس . وفى رواية أخرى : قال جابر : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بذات الرقاع ، فإذا أتينا على شجرة ظليلة تركناها لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجاء رجل من المشركين وسيفُ رسول الله صلى الله عليه وسلم معلق بالشجرة ، فاخترطه ، فقال : تخافنى ؟ قال : لا ، قال : فمن يمنعك منى ؟ قال : الله . وفى رواية أبى بكر الاسماعيلى فى صحيحه فقال : من يمنعك منى ؟ قال : الله . فسقط السيف من يده ، فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم السيف فقال : من يمنعك منى ؟ فقال : كن خير آخذ . فقال : تشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله ؟ فقال : لا ، ولكن أعاهدك أن لا أقاتلك ولا أكون مع قوم يقاتلونك . فخلّى سبيله ، فأتى أصحابه فقال : « جئتكم من عند خير الناس » ! .

وتأمل — أرشدك الله — ما أقصه عليك من نبأ سيد المرسلين مع ذلك الأعرابى :

جاء أعرابى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان الرسول يلبس بُرداً غليظ الحاشية ، فجبذه الأعرابى جبذة شديدة حتى أثرت حاشية البرد على صفحة عنق النبى صلى الله عليه وسلم ، وزاد الأعرابى على إساءة الفعل إساءة القول فقال : يا محمد احمل لى على بعيرىَّ هذين من مال الله الذى عندك ، فإنك لا تحمل لى من مالك ولا من مال أبيك ! فقال : يا أعرابى : المال مال الله ، وأنا عبده ، ولكن يقاد (يقتص) منك ما فعلت بى ؟ قال : لا . قال : لم ؟ قال : لأنك لا تكافىء السيئة بالسيئة ! فتبسم النبى صلى الله عليه وسلم ، وأمر أن يحمل له على بعيرٍ شعيرٍ ، وعلى الآخر تمر .

ولما أمكنه الله من أعدائه الذين أخرجوه من بلده وآذوه وأصحابه وتفننوا فى إيصال الضرر به وبأصحابه حتى عذبوا بعضهم بالنار ، لما أمكنه الله منهم وفتح عليه مكة ، جمع القوم وقال : ما تظنون أنى فاعل بكم ؟ قالوا خيراً ، أخ كريم وابن أخ كريم . قال : اذهبوا فأنتم الطلقاء . وفى بعض الروايات : أقول لكم ما قال يوسف لإخوته : « لا تثريب عليكم اليوم ، يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين » .

هذا الخلق العظيم شأن الكرام .

إن الكريم إذا تمكن من أذى جاءته أخلاق الكرام فأقلعا
وترى اللئيم إذا تمكن من أذى يطغى فلا يبقى لصلح موضعا

رحمته وبره

إن من يتأمل ما كان متصفاً به ذلك القلب الكبير من الشفقة والحنان والرحمة ، حتى لقد شملت رحمته الانسان والحيوان ، والمؤمن والكافر، من يتأمل ذلك لايسعه إن كان من أهل الانصاف إلا الاقرار بعظمة فتى الصحراء صلوات الله عليه ويعتقد بحق أنه رحمة مهداة للناس جميعا ، كما قال الله فى كتابه الكريم: «وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » .

أما رحمته بالمساكين وذوى الفاقة والمحاويج ، فتلك مضرب المثل إلى أن تقوم الساعة .

من ذلك وصيته لزوجه عائشة رضى الله عنها ، قال لها :

« يا عائشة لا تردى المسكين ولو بشق تمرة . يا عائشة أحبى المساكين وقربيهم يقربك الله منه » .

تلك وصيته لزوجه الطاهرة وهذا هو قوله لها. وأما فعله معهم وما كان يعاملهم به من المعاملة الممتازة فإليك بعضه :

كان صلى الله عليه وسلم يجلس معهم ويسير بسيرهم ، ويأكلون معه من طعامه ؛ يعود مرضاهم ، ويمشى فى جنائزهم ، يوقر كبيرهم، ويعطف على صغيرهم ؛ يحث الأغنياء على البر بهم بعبارات تستدر

عطف البخيل ، مثل قوله عليه السلام : « من فرّج عن مؤمن كُربة من كرب الدنيا فرج الله عنه كربة من كربات يوم القيامة ومن يسّر على معسر يسر الله عليه فى الدنيا والآخرة ، ومن ستر مسلماً ستره الله فى الدنيا والآخرة ، والله فى عون العبد ما دام العبد فى عون أخيه » .

ومثل قوله صلوات الله عليه : « من كسا مسلماً ثوباً على عُرْى كساه الله من خُضر الجنة ، ومن أطعم مسلما على جوع أطعمه الله من ثمار الجنة ، ومن سقى مسلماً على ظمأ سقاه الله من الرحيق المختوم » .

برٌّ كله وعطف وحنان . أنظر كيف يحمل قلوباً مرنت على القسوة والغلظة ، على الرفق بالحيوان . وأى قلب لا يلين حين يسمع قوله عليه السلام « بينما رجل يمشى بطريق ، اشتد عليه العطش ، فوجد بئراً فنزل فيها فشرب ثم خرج ، فإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش ، فقال الرجل : لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذى بلغ بى ، فنزل البئر فملأ خفه ماء ثم أمسكه بفيه حتى رقى فسقى الكلب ، فشكر الله تعالى له ، فغفر له » . فقالوا يارسول الله : وإن لنا فى البهائم أجراً؟ قال « فى كل كبد رطبة أجر » .

وقال صلوات الله وسلامه عليه « دخلت امرأة النار فى هرة ربطتها فلم تطعمها ، ولم تدعها تأكل من خَشاش الأرض » ، وقال

عليه السلام « من يحرم الرفق يحرم الخير كله » .

وحدث عبد الرحمن بن عبد الله قال : كنا مع رسول الله فى سفر فرأينا حُمرة (طائر) معها فرخان لها ، فأخذناهما ، فجاءت الحمرة تعرش (ترفرف) ، فلما جاء الرسول صلى الله عليه وسلم قال: من فجع هذه بولدها ؟ ردوا ولدها إليها » !

ولو تركنا للقلم العنان فى بيان رحمته وبره لما وسعنا الكتاب فنكتفى بما أسلفنا ، لنذكر طرفا من :

شجاعته وقوة عزيمته

تتجلى شجاعته وقوة عزيمته فى ثباته على الحق والجهر به ، غير مبال بالشدائد تصيبه ، والبلايا تنزل به وبأصحابه ، مادام فى ذلك مرضاة الله تعالى .

ورد أن كفار قريش اجتمعوا إلى عمه أبى طالب وقالوا له : إن ابن أخيك سفه أحلامنا ، وعاب آباءنا ، وحقر أصنامنا ، فإما أن تكفه أو تنازله وإياك فى ذلك حتى يهلك أحد الفريقين . ثم انصرفوا . فقال أبو طالب للنبى صلى الله عليه وسلم : يا ابن أخى إن القوم جاءونى فقالوا لى كذا ، فأبق على نفسك ولا تحملنى من الأمر مالا أطيق . فحسب الرسول أن عمه خاذله فقال « والله ياعم لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر في يسارى ، على أن أترك هذا الأمر ، ما فعلت حتى يظهره الله أو أهلك دونه »

ولما انهزم المسلمون فى غزوة حنين وتفرقوا ، ثبت صلى الله عليه وسلم على بغلته فى ميدان القتال وهو يقول «أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب » .

ولقد صدق كعب بن زهير فى قوله مدحا لرسول الله صلى الله عليه وسلم :

إن الرسول لنور يستضاء به مهند من سيوف الله مسلول

تلك بعض نواحى عظمته صلى الله عليه وسلم . ولقد حملت خلاله الجميلة ، وسجاياه النبيلة ، وثباته على الدعوة إلى الحق، ومتانة ما جاء به من الدين الحنيف ، كثيراً من منصفى الفلاسفة من غير أهل الديانة الاسلامية على الدفاع عنه وعن القرآن والاسلام . من ذلك قول جان جاك روسو «من الناس من يتعلم قليلا من العربية، ثم يقرأ القرآن ويضحك منه ، ولو أنه سمع محمداً وهو يمليه على الناس بتلك اللغة الفصحى الراقية وصوته المشبع الذى يطرب الآذان ويؤثر فى القلوب ، والتفت إلى أنه كلما بدت أحكامه أيدها بقوة البيان وفصاحة اللسان ، لخر ساجداً على الأرض وناداه : أيها النبي رسول الله : خذ بيدنا إلى مواقف الشرف والفخار ، أو إلى مواقع التهلكة والأخطار ، فنحن من أجلك نود الموت أو الانتصار » .

إن الدين عند الله الاسلام

ما يدعو إليه الإسلام :

الاسلام دين الفطرة التى فطر الله الناس عليها، يدعو إلى اعتقاد أن للعالم إلهاً واحداً لا شريك له « ليس كمثله شيء » ، له القدرة التامة ، والارادة المطلقة ، والعلم المحيط يلزم البشر الخضوع له والانقياد والعمل على مرضاته بامتثال أمره واجتناب نهيه .

وهذا الذى جاء به الاسلام اتفقت فى الدعوة إليه كل الأديان الحقة ، وتواضعت عليه عموم الشرائع السماوية « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذى أوحينا اليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى : أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ، كبر على المشركين ما تدعوهم اليه : الله يجتبى اليه من يشاء ويهدى اليه من ينيب » .

الاسلام دين المدنية الفاضلة ، يدعو إلى الصدق والعفاف ، والعدل ، وحفظ العهود ، والجد والنشاط ، والتحلى بمكارم الأخلاق يدعو إلى تحصيل الرفاهية والتمتع بلذائذ الحياة فى قصد واعتدال ، ضمن حدوده وقوانينه ؛ يدعو إلى البر والتقوى ، وينهى عن الإثم والعدوان ؛ لا يأمر إلا بما يعود على العالم بالسعادة والفلاح ، ولا ينهى إلا عما يجلب الشقاء والمضرة للعباد ؛

لأنه قانون وضعه العليم بمصالح الخلق ، الخبير بما يحتاجون اليه فى معاشهم ومعادهم .

الاسلام دين الطيبات ، لا يدعو الناس إلى الزهد المسرف ، والتقشف المضنى ، وإهمال شأن هذه الحياة كما يحسب أعداؤه . بل هو الدين الاجتماعى الذى يرغب البشر فى تحصيل السعادة ، والتمتع بمباهج الحياة ، واقتطاف لذاتها ، وجنى ثمارها ، من غير إفراط ولا تفريط . وإليك البيان :

منهاج الاسلام الذى أنزله الله على سيدنا محمد صفيه وخاتم رسله صلى الله عليه وسلم يشمل أقساما :

(١) الاقرار بموجد العالم وأنه واحد ، والاعتراف بالميعاد وبعث الأجساد .

(٢) ضروب العبادات التى تهذب الأرواح .

(٣) أسس لنظام الجمعية الانسانية وارتباط أفراد الناس بعضهم ببعض .

القسم الأول

الاقرار بصانع العالم ، وأنه واحد موصوف بالكمال منزه عن النقص . وتعليمات الاسلام فى هذا بينة جلية ، لا غموض فيها ولا إبهام ، فلم يقل على الثلاثة إنهم واحد ، ولم يقل بالحلول والتعطيل والتشبيه ، وما إلى هذا مما ينافى مقام الألوهية .

ذلك أن الاسلام حين دعا إلى الاقرار بموجد العالم ووحدانيته لم يدع إليه إلا بالبرهان الجلى والحجة البينة ، فلم يكلف البشر باعتقاد مالا بينة عليه ، بل نصب الأدلة فى الأنفس والآفاق ، وحث العقول على النظر والاستدلال ، لتصل بالبرهان إلى معرفة أن للعالم إلها واحداً « ليس كمثله شىء » « كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون فى الدنيا والآخرة » .

فتراه مرة يفتح أمام عقلك وبصرك صحيفة السماء ، ويلفتك إلى ماحوت من شمس مشرقة وقمر منير ونجم مضىء ، فيقول : « هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نوراً وقدره منازلَ لتعلموا عدد السنين والحساب » .

ويقول « فالق الاصباح ؛ وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا ؛ ذلك تقدير العزيز العليم » .

ويقول « أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج » .

فإذا علمنا أن فصول السنة أربعة : الربيع والصيف والخريف والشتاء ، وعلمنا فوق هذا أن لكل فصل من الفصول منافعه ومميزاته فى تنمية الأجسام وانضاج الزروع والثمار ، وأنها تأتى فى أوقاتها التى قدرها الله تعالى وعلم فيها المصلحة للعباد ، امتلأت النفوس إيماناً بوجود إله حكيم مدبر للعالم ، خبير بحاجة البشر والنبات والحيوان .

وإذا علمنا أن ضوء النهار يزيل ظلمة الليل ، أدركنا أن ذلك لا يحدث إلا بقدرة صانع واحد متعال .

وتراه مرة يلفت عقلك إلى الأرض التى تسير عليها ، ويدعوك إلى النظر فيما بين يديك من تربة الأرض الواحدة ، ذات الأشجار المتنوعة الثمر ، فيقول :

« وفى الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ، ونفضل بعضها على بعض فى الأكل ، إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون » .

نشاهد شجرة الكرم (العنب) بجوار شجر الليمون ؛ والتفاح بجوار الحنظل فى قطعة واحدة من الأرض تسقى بماء واحد ، وقد جعل الله سبحانه لكل نوع جذورا تمتص من الأرض ما يناسبها من الغذاء الذى به قوامها وحياتها ، وتنتج كل واحدة من الثمر ما يخالف الأخرى فى اللون والطعم والرائحة ؛

ألا يدل هذا على وجود صانع قادر « إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد » .

وتراه مرة أخرى يلفت العقول الى أنه منزل الماء الذى به قوام الحياة ، وأنه جعله عذبا فراتا صالحا لتغذية الحيوان والنبات، ولو شاء أن يجعله أجاجا لا نفع فيه لكان ، فيقول :

« أفرأيتم الماء الذى تشربون . أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون . لو نشاء جعلناه أجاجا فلولا تشكرون » .

وتسمعه جل شأنه حين يتحدث عن وحدانيته ، وان موجد العالم يجب أن يكون واحداً ، فيقول فى جزالة لفظ وفخامة معنى : « لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ، فسبحان الله رب العرش عما يصفون » . ويقول : « ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله ، إذاً لذهب كل إله بما خلق ، ولعلا بعضهم على بعض » .

فتراه يصرح بأن تعدد الرؤساء فى المملكة الواحدة داع لاضطراب شئونها واختلال نظامها ، وإن شئت قل إلى زوالها من صفحة الوجود .

وتراه يبرهن للذين يدعون غير الواحد القهار أن هؤلاء المدعوين لايستطيعون أن يخلقوا أضعف الحشرات ، بل إن هذه الحشرات لو سلبتهم طعامهم ، وسطت على أشيائهم ما استطاعوا رد ما سلب ولا دفع ما وقع ، فكيف يكون هؤلاء آلهة ! وذلك قوله سبحانه :

«إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له ، وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ، ضعف الطالب والمطلوب » .

فأنت ترى — أرشدك الله — أنه نوع الأساليب وعدد الأدلة ولفت العقول إلى النظر فى الأرض والسماء ، والناطق والصامت ، لتؤمن عن برهان ، وتذعن عن حجة بوجود صانع واحد، أحسن كل شىء خلقه ؛ بل إنه رفض التقليد فى باب الاقرار بوجود صانع العالم ووحدانيته وذم المقلدين أقبح الذم ، والآيات فى باب إثبات الصانع الواحد المتصف بكل كمال . والمنزه عن كل نقص ، لا تكاد تحصى ، حتى قال العلماء : إن جُل ما نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بمكة إنما هو فى الدعوة إلى الاعتراف بموجد العالم وأنه واحد ، والإقرار بالمعاد . ونكتفى بما ذكرنا فى ذلك إيثاراً للايجاز ، لنذكر لك طرفا من : أدلة الإسلام فى إثبات المعاد ، وأن هناك يوماً يجازى فيه المحسن على إحسانه والمسىء على إساءته . والذى يتصفح شرائع الإسلام يرى أنه أثبت المعاد ببراهين تحاكى الشمس فى الوضوح والجلاء، فيقول « يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ويحيى الأرض بعد موتها ، وكذلك تخرجون » .

ترى الطفل يتكون من النطفة التى ترجع إلى التراب وإنه لميت جماد ، كما أن النطفة التى أصلها ماسمعت تخرج من الإنسان وإنه لحى

ناطق ، أفلا نجزم أن الذى بدأنا من عدم محض ، قادر على إعادتنا سيرتنا الأولى بعد فناء أجسامنا ؟

لاشك أن من قدر على البدء فهو على الإعادة أقدر ، وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده ، وهو أهون عليه » .

وهل بعد الآية الآتية يطلب دليل على إثبات الحشر والبعث؟ تأملها تجدها بينة واضحة لاتحتاج إلى شرح أو بيان ، تلك قول الله سبحانه :

« وضرب لنا مثلا ونسى خلقه ، قال من يحيى العظام وهى رميم قل يحييها الذى أنشأها أول مرة ، وهو بكل خلق عليم ، الذى جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون . أو ليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم ؟ بلى وهو الخلاق العليم . إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون . فسبحان الذى بيده ملكوت كل شىء وإليه ترجعون » .

تلك حجج بينات على البعث والنشور ، والرجوع إلى الرحيم الغفور ، فسبحانك ربى ما أجلى براهينك وأوضح أدلتك ! وما يذكر إلا أولو الألباب .

وقبل أن ننتقل بك إلى القسم الثانى نروى لك قصة تلميذ صوفى مع شيخه ترويحاً لنفسك وتنشيطاً لذهنك ، فإن التزام حال واحدة فى وضع الكتب يضجر القارىء ويبلد ذهنه ، وبمشيئة الله بعد الفينة والفينة تتحفك بما يشوقك وينفعك . وإليك قصة :

شقيق البلخى وتلميذه حاتم الأصم

قال شقيق لتلميذه : منذ كم صحبتنى يا حاتم ؟ قال حاتم : منذ ثلاث وثلاثين سنة . قال : فما تعلمت منى فى هذه المدة ؟ قال ثمانى مسائل . قال شقيق : إنا لله وإنا إليه راجعون ! ذهب عمرى معك ولم تتعلم إلا ثمانى مسائل ؟ ! قال : يا أستاذ لم أتعلم غيرها ، وإنى لا أحب أن أكذب . فقال : هات هذه الثمانى مسائل حتى أسمعها .

الأولى : نظرت هذا الخلق فرأيت كل واحد يحب محبوباً فهو مع محبوبه إلى القبر ، فإذا وصل إلى القبر فارقه ؛ فجعلت الحسنات محبوبى ، فإذا دخلت القبر دخل محبوبى معى ، فقال : أحسنت يا حاتم .

الثانية : نظرت فى قول الله تعالى « وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هى المأوى » فعلمت أن قوله سبحانه وتعالى هو الحق ، فأجهدت نفسى فى دفع الهوى حتى استقرت على طاعة الله تعالى .

الثالثة : نظرت إلى هذا الخلق فرأيت كل من معه شىء له قيمة ومقدار رفعه وحفظه ، ثم نظرت إلى قول الله عز وجل « ما عندكم ينفد وما عند الله باق » فكلما وقع فى يدى شىء له قيمة وجهته إلى الله ليبقى عنده محفوظا .

الرابعة : نظرت إلى هذا الخلق فرأيت كل واحد منهم يرجع

إلى المال وإلى الحسب والشرف والنسب ، فنظرت فيها فإذا هى لا شىء ، ثم نظرت إلى قول الله تعالى « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » فعملت فى التقوى حتى أكون عند الله كريما .

الخامسة : نظرت إلى هذا الخلق وهم يطعن بعضهم فى بعض ويلعن بعضهم بعضا ، وأصل هذا كله الحسد ، ثم نظرت إلى قول الله تعالى « نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا » فتركت الحسد واجتنبت الخلق ، وعلمت أن القسمة من عند الله سبحانه وتعالى ، فتركت عداوة الخلق عنى .

السادسة : نظرت إلى هذا الخلق يبغى بعضهم على بعض ويقاتل بعضهم بعضا ، فرجعت إلى قول الله تعالى « إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا » فعاديته وحده واجتهدت فى أخذ حذرى منه ؛ لأن الله تعالى شهد عليه أنه عدو لى ، فتركت عداوة الخلق غيره .

السابعة : نظرت إلى هذا الخلق فرأيت كل واحد منهم يطلب هذه الكسرة فيذل فيها نفسه ويدخل فيما لا يحل له ، ثم نظرت إلى قول الله تعالى « وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها » فعلمت أنى واحد من هذه الدواب التى على الله رزقها ، فاشتغلت بما لله تعالى على ، وتركت مالى عنده .

الثامنة : نظرت إلى هذا الخلق فرأيتهم كلهم متوكلين على مخلوق : هذا على ضيعته ، وهذا على تجارته ، وهذا على صناعته ،

وهذا على صحة بدنه ، وكل مخلوق متوكل على مخلوق مثله ؛ فرجعت إلى قول الله تعالى « ومن يتوكل على الله فهو حسبه » فتوكلت على الله عز وجل ، فهو حسبي .

قال شقيق : يا حاتم وفقك الله تعالى . فإني نظرت فى علوم التوراة والإنجيل والزبور والفرقان العظيم ، فوجدت جميع أنواع الخير والديانة وهى تدور على هذه الثمان مسائل ، فمن استعملها فقد استعمل الكتب الأربعة .

ويروى أن أهل بغداد إجتمعوا إلى حاتم وقالوا له : يا أبا عبد الرحمن أنت رجل ألكن أعجمى وليس يكلمك أحد إلا قطعته ؟ قال : معى ثلاث خصال أظهر بهن على خصمى : أفرح إذا أصاب خصمى ، وأحزن إذا أخطأ ، وأحفظ نفسى ألا أجهل عليه . فبلغ ذلك أحمد بن حنبل فقال : سبحان الله ما أعقله ! قوموا بنا إليه . فلما دخلوا عليه ، قال له : يا أبا عبد الرحمن ما السلامة من الدنيا ؟ قال : يا أبا عبد الله لا تسلم من الدنيا حتى يكون معك أربع خصال :

تغفر للقوم جهلهم ، وتمنع جهلك عنهم ، وتبذل لهم شيئك ، وتكون من شيئهم آيساً . فاذا كنت هكذا سلمت .

وأقول : هذه هى العلوم النافعة ، والأدوية المفيدة ، والتصوف الحق ، والدعوة إلى الله من طريقها الصحيح . ولقد صدق الأول حين يقول :

ليس التصوف لبس الصوف ترقعه
ولا بكاؤك إن غنى المغنونا
ولا صياح ولا رقص ولا طرب
ولا اضطراب كأن قد صرت مجنونا
بل التصوف أن تصفو بلا كدر
وتتبع الحق والقرآن والدينا
وأن ترى خاشعا لله مكتئباً
على ذنوبك طول الدهر محزونا

وقد أرى من الحسن أن أسمعك هذا الحديث لشدة مناسبته لقصة شقيق وتلميذه حاتم ، وهو :

عن أنس رضى الله عنه قال : بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم يمشى فى طريق إذ لقيه حارثة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: كيف أصبحت يا حارثة ؟ قال : أصبحت والله مؤمناً حقا . فقال صلى الله عليه وسلم : انظر ما تقول ، فإن لكل حق حقيقة ، فما حقيقة إيمانك ؟ فقال : عزفت نفسى عن الدنيا ، وأسهرت ليلى وأظمأت نهارى ؛ وكأنى أنظر إلى عرش ربى بارزاً ، وكأنى أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها وإلى أهل النار يتعاوون فيها . فقال صلى الله عليه وسلم : عرفت فالزم . ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من سره أن ينظر إلى رجل نور الله الايمان فى قلبه فلينظر إلى هذا . ثم قال : يارسول الله أدع الله لى بالشهادة ،

فدعا له ، فنودى بعد ذلك : ياخيل الله اركبي ! فكان أول فارس ركب فاستشهد فى سبيل الله . . .

ويحسن أن أسوق إليك عقيدة التوحيد بعد ذلك فى موضوع:

إذا سألت فاسأل الله

كثير ممن حاقت بهم الغفلة ، وران على قلوبهم الجهل، إذا نزلت بهم نازلة أو حدثت لهم حادثة من حوادث الزمان ، نسوا الله واستغاثوا بعبيده ، والتجأوا إلى من لايملك لهم ولا لنفسه ضراً ولا نفعاً ؛ وذلك من تلبيس الشيطان وتزيينه للناس الضلال ، حتى أعماهم عن طريق الدين الصحيح ، وحسن لهم سوء أعمالهم ؛ فبدلا من التجاء العبد لمولاه فى تفريج كرباته، يحسن له أن ينادى ويستغيث بواحد من مخلوقاته ، مع أن الله سبحانه وتعالى يقول : « ادعونى أستجب لكم » ، ويقول عز شأنه « وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب، أجيب دعوة الداع إذا دعان » « إياك نعبد وإياك نستعين » .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال « كنت خلف النبى صلى الله عليه وسلم يوماً فقال : ياغلام إنى أعلمك كلمات :

« احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ؛ واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشىء لم ينفعوك إلا بشىء قد كتبه الله لك ، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشىء لم يضروك إلا بشىء قد كتبه الله

عليك ، رفعت الأقلام وجفت الصحف ، رواه الترمذى . وفى رواية أخرى من غير طريق الترمذى « احفظ الله تجده أمامك ، تعرف إلى الله فى الرخاء يعرفك فى الشدة ، واعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك ، وما أصابك لم يكن ليخطئك ، واعلم أن النصر مع الصبر ، وأن الفرج مع الكرب ، وأن مع العسر يسرا » .

وتعال معى — وفقك الله — أرشدك إلى أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يعلم أصحابه أن يتوسلوا إلى الله بصالح أعمالهم . وإليك حديث :

الثلاثة الذين انطبق عليهم الغار

عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « انطلق ثلاثة نفر ممن كان قبلكم حتى أواهم المبيت إلى غار ، فدخلوه ، فانحدرت صخرة من الجبل فسدّت عليهم الغار ، فقالوا : (أى قال بعضهم لبعض) : إنه لا ينجيكم من هذه الصخرة إلا أن تدعوا الله تعالى بصالح أعمالكم .

قال رجل منهم : اللهم كان لى أبوان شيخان كبيران ، وكنت لا أغبق (بفتح فسكون) قبلهما أهلا ولا مالا (أى ما كنت أقدم عليهما فى شرب نصيبهما من اللبن أولاداً ولا خدماً) فنأى بى طلب الشجر يوماً فلم أرح (بضم الهمزة وكسر الراء أى أرجع) عليهما حتى ناما فحلبت لهما غبوقهما ، فوجدتهما نائمين ، فكرهت أن

أوقظهما ، وأن أغبق قبلهما أهلا أو مالا ، فلبثت والقدح على يدى أنتظر استيقاظهما حتى برق الفجر ، والصبية يتضاغون عند قدمى (أى يضجون من الجوع) واستيقظا فشربا غبوقهما ، اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ففرج عنا مانحن فيه من هذه الصخرة ! فانفرجت شيئاً لايستطيعون الخروج منه .

قال الآخر : اللهم إنه كانت لى ابنة عم كانت أحب الناس إلى فأردتها عن نفسها فامتنعت منى ، حتى ألمت بها سنة من السنين فجاءتنى ، فأعطيتها عشرين ومائة دينار على أن تخلى بينى وبين نفسها ، ففعلت ، فلما قعدت بين رجليها قالت : اتق الله ولا تفض الخاتم إلا بحقه ! فانصرفت عنها وهى أحب الناس إلى ، وتركت الذهب الذى أعطيتها ، اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا مانحن فيه ! فانفرجت الصخرة غير أنهم لايستطيعون الخروج منها .

وقال الثالث : اللهم استأجرت أجراء وأعطيتهم أجرهم غير رجل واحد ترك الذى له وذهب ، فثمرت أجره حتى كثرت منه الأموال ، فجاءنى بعد حين فقال : ياعبد الله أد إلى أجرى ، فقلت : كل ماترى من أجرك من الإبل والبقر والغنم والرقيق ! فقال : ياعبد الله لاتستهزىء بى . فقلت لا أستهزىء بك ، فأخذه كله ، فاستاقه فلم يترك منه شيئاً ، اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك

فافرج عنا مانحن فيه ! فانفرجت الصخرة ، فخرجوا يمشون ».
رواه البخارى ومسلم .

هذا هو التوسل المشروع الذى يحبه الله ويرضاه . تتوسل إلى الله عند الكربات بصالح عملك لا بفلان وعلان . والوسيلة فى قول الله تعالى « اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة » هى العمل الصالح. فالجأ إلى الله فى حوائجك يقضها لك فإن الطاعات تفرج الكربات.

لا تسألن بنى آدم حاجة وسل الذى أبوابه لاتحجب
الله يغضب إن تركت سؤاله وبنى آدم حين يُسأل يغضب

القسم الثانى

ضروب العبادات التى تهذب الأرواح

وهذا القسم يشمل الصلاة ، ووسيلتها « الوضوء » ، والصيام ، والزكاة ، والحج .

ومهما أوتى المرء من فصاحة لسان ، وقوة بيان ، فلن يستطيع حصر المحاسن التى فى تلك التكاليف .

وأهم هذه المحاسن خضوع العبد لربه ، وإظهار افتقاره الى الله ، وعجزه .

الصلاة — قبل الخوض فى بيان محاسنها نسوق نبذة فى مزايا :

الوضوء[1]

مزاياه الدينيـــة : الوقوف بين يدى الله على أكمل حال وأحسن هيئة .

ومن مزاياه الصحية : نشاط البدن وانتعاش الأعصاب. ولغسل كل عضو فوائد ، وبتعميم جميع أعضاء الوضوء بالغسل تحصل الفائدة العظيمة للجسم كله .

---

(١) الكلام فى الوضوء ذكرهنا مفصلا وفى كتاب غذاء الأرواح مجملا وكذلك الصلاة . ويرى المؤلف الكلام على الصلاة فى كل كتاب .

وإن من يتأمل إرشادات الإسلام يرى أنه الدين الذى يساير الفطر ، ويلائم الطبائع ، ويوافق العقول السليمة ، صالح لكل الأزمنة ولعموم البشر . وصدق الله العظيم « إن الدين عند الله الإسلام » . « ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين » .

والإسلام دين الجمال ، يشيد بذكر مافيه حسن ويرغب فيه ، وينفر من الدرن والقذر ويزدريه .

فمن محاسنه العظيمة : دعوته إلى تطهير الجسم والملابس والمكان ، كما دعا إلى تطهير الباطن والإخلاص لله فى كل الأعمال . فمن الجهل والغباوة أن يسأل سائل عن فائدة الوضوء والغسل فى الشريعة الإسلامية .

وإلا فأى امرىء ينكر أن جمال العين فى نظافتها وبها تسلم من الأمراض التى تفقدها قوة الإبصار ، بل أى إنسان يمارى فى أن نظافة الفم تساعد على تنظيم عملية الهضم ، وتمنع كثيراً من أمراض المعدة والأمعاء ، وأن الأيدى التى نتناول بها الأطعمة ونصافح بها الأحبة جديرة بالنظافة التى شرعت لها فى الوضوء .

ففائدة الوضوء والغسل ومزاياهما الدينية والدنيوية لاينكرها إلا من حجب النور عن بصره وبصيرته . وإذ قد علمنا بعض مافيهما من الفوائد ، علمنا السر فى تكليفنا بذلك فى قول الله تعالى :

يأيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق وامسحوا برءوسكم وأرجلكم إلى الكعبين وإن كنتم جنبا فاطهروا ،

وإنى أذكر لك كيفية الوضوء والغسل بحيث لا يحتاج من يعمل بما رسمتُ له إلى سؤال أحد ، سواء أكان مالكيا أو شافعيا أو مقلداً لغيرهما من الأئمة الأربعة ، رضوان الله عليهم واليك البيان :

كيفية الوضوء

تبدأ بغسل الكفين ، ثم تأخذ غرفة بيدك اليمنى وتمضمض بها فمك ، وتستن بأصبعك أو بالسواك ، تفعل ذلك ثلاثا ، ثم تأخذ غرفة بيمنك فتستنشق بها (واستنشاق الماء إدخاله فى الأنف وجذبه بواسطة النفَس) . ثم تستثر بيدك اليسرى (تخرج الماء وما خالطه من الأنف بإخراج نفَسك) ، تفعل ذلك ثلاثاً . ثم تغسل وجهك من منبت شعر الرأس الى أسفل الذقن وما بين الأذنين وتدلك بيدك ، تفعل ذلك ثلاثا . ثم تغسل يدك اليمنى إلى المرفق (المفصل) وتدلكها ، ثم اليسرى كذلك ، تفعل ذلك ثلاثا . وتخلل أصابع يديك ، وتنزع خاتمك إن كان ضيقا ، وتحركه إن كان واسعا ، ثم تأخذ قليلا من الماء ثم تمسح رأسك كلها وأذنيك ، وأنت بالخيار بين أن تأخذ لأذنيك ماء جديداً وهو الأولى أو تمسحهما بماء الرأس . ثم تغسل رجلك اليمنى إلى الكعب

ثلاثا ، واليسرى كذلك ، وتدلكهما ، وتخلل أصابعهما . والغسل ثلاثا لكل عضو ليس بفرض ، فقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه توضأ مرة مرة ومرتين مرتين وثلاثا ثلاثا ، ولم يزد .

والوضوء على الكيفية المذكورة من خصائص الأمة المحمدية فقد ورد فى البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال « إنى سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول « إن أمتى يدعون يوم القيامة غرًّا محجلين من آثار الوضوء ، فمن استطاع منكم أن يطيل غرته فليفعل » .

وورد فى فضائل الوضوء أحاديث كثيرة ، منها ما راوه الإمام أحمد فى مسنده عن أمامة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « أيما رجل قام إلى وضوئه يريد الصلاة ثم غسل كفيه ، نزلت خطيئته من كفيه مع أول قطرة . فإذا تمضمض واستنشق واستنثر نزلت خطيئته من لسانه وشفتيه مع أول قطرة . فإذا غسل يديه إل المرفقين ورجليه إلى الكعبين ، سلم من كل ذنب هو له ، ومن كل خطيئة كهيئته يوم ولدته أمه . فإذا قام إلى الصلاة رفع الله بها درجته ، وإن قعد قعد سليما » .

وعن عمر بن الخطاب رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم : « ما منكم من أحد يتوضأ فيبلغ أو فيسبغ الوضوء » ثم قال « أشهد أن لا إله الا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء » .

رواه مسلم . وفى رواية للترمذى زيادة «اللهم اجعلنى من التوابين ، واجعلنى من المتطهرين » .

كيفية الغسل

تبدأ بإزالة ما علق بالجسم من نجاسة ، ثم تتوضأ وضوءك للصلاة ، ثم تفيض الماء على عموم الجسم وتدلكه .

وسبب الغسل واحد من ثلاث : الجنابة ، والحيض ، والنفاس ومن المحسوس شعور الإنسان بالفتور فى الجسم كله عقب خروج المنى بعد تلك العملية التناسلية ، وكذا ضعف الأعصاب وارتخاؤها بسبب ذلك ، ولا يعود للبدن نشاطه إلا بوجود عوض من الدم الصالح بدل الذى خرج ، وهيهات أن يعود إلا بعد زمن ، ولا بد من بدل ينعش الجسم وينشطه ، وليس إلا الماء ينعش وينشط ، ويذهب الخمول والفتور ، ولا ينكر هذا الا معاند عديم الشعور .

الصـــــلاة

معناها فى لغة العرب : الدعاء . قال الله تعالى : « وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم » أى ادع لهم . وقال الله تعالى : « يأيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما » .

ومعناها فيما اصطلح عليه الفقهاء : أقوال وأفعال تفتتح بالتكبير وتختتم بالتسليم بشرائط ستعلمها بعد . والصلاة هى الصلة بين العبد وربه ، من حافظ على أدائها كان بينه وبين الله رابطة

وسبب ، ومن ضيعها وترك القيام بها برئت منه ذمة الله وكان يوم القيامة مع فرعون وهامان فى نار جهنم .

الصلاة صورة أدب واحترام ، ومظهر إجلال من العبد لربه ، يؤدى به واجب الاكبار والتعظيم والخنوع والتقديس ، شأن العبد بين يدى سيده ، والخادم أمام مخدومه ، يقف المرء بين يدى ربه فيبتدىء بالاعتراف لله بأنه أكبر من كل شىء (الله أكبر) ، وكل شىء بالقياس إليه صغير حقير ، ثم يأخذ فى الثناء على الله ويخصه بالعبادة وطلب المعونة ، ضارعاً إليه أن يهديه الصراط المستقيم ، وأن يجعله من الذين أنعم عليهم بالتوفيق والهداية ، وأن يبعده عن طريق المغضوب عليهم لانحرافهم عن سواء السبيل بعد أن عرفوه ، وان يجنبه طريق الضالين المتحيرين الذين عبدوا أهواءهم وشياطينهم . وعندئذ تمتلىء النفس بعظمة الله وهيبته ، فيخر المرء ساجداً مظهراً للذلة والمسكنة إلى من بيده مقاليد السموات والأرض .

فمزايا الصلاة من ناحية الدين : خضوع وخشوع ، واعتراف بعظمة القاهر المقتدر . ومتى استشعر القلب ذلك وامتلأت النفس من هيبة الله وجلاله ، كف المرء عن المحرمات ، وجانب طريق الموبقات ، فلا عجب أن يقول الله فى شأن الصلاة إذا أديت على وجهها « إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ، ولذكر الله أكبر » .

وللصلاة مزايا صحية اعترف بها حتى أعداء الاسلام، فلا نحسب من ينكر أن فى رفع اليدين وانخفاضهما وفى القيام والجلوس من الحركات الرياضية المنظمة ما لم يتوصل اليه علماء الرياضة فى هذا العصر ، فهذه الحركات تريح العمود الفقرى والأعصاب ، وتبعث فى الجسم النشاط ، وتلين المفاصل ، وتقوى حركة الدم فى دورته، وتساعد المعدة على سرعة الهضم .

فيا حبذا لو وفق أولوا الأمر إلى تعويد التلاميذ تأدية الصلاة فى أوقاتها ، فإنها كفيلة بتقوية أجسامهم وحفظ صحتهم على أحسن وجه ، وإرضاء للخالق الأكبر . ومن رحمة الله بعباده أن أرسل اليهم الرسل الكرام لارشادهم إلى ما فيه سعادة الدنيا والآخرة ، فبينوا — صلوات الله عليهم — للناس طريق الهدى ، ورغبوهم فى سلوكه ؛ وحذروهم سبيل الردى ونفروهم منه ؛ ولكن الانسان لنفسه ظلوم !

ومن يتأمل كتاب الله تعالى (القرآن) وما جاء فيه من الوعيد لتارك الصلاة ، وما ورد من الأحاديث فى بيان عقاب من لا يؤديها ، من يتأمل ذلك وفى قلبه مثقال ذرة من الايمان يبادر خوف النقمة إلى أدائها ، ويحافظ عليها فى أوقاتها أشد من محافظته على ماله وولده ونفسه ، فإن بها الروح والريحان ، والسلامة والأمان .

فمن الآيات الدالة على شدة عقاب تارك الصلاة قوله تعالى :

« يوم يكشف عن ساق ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة ، وقد كانوا يدعون إلى السجود وهم سالمون » .

يوم الكشف عن الساق هو يوم اشتداد الكرب ، يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه ، يوم ينادى منادى الإله : أين من ترك الصلاة ؟ فيجيب كل من ضيع الصلاة فى الدنيا ، فيدعى إلى الركوع فلا يستطيع ويدعى إلى السجود فلا يستطيع ، وتفرغ عليه الذلة ، ويسمع النداء : قد كنت تستطيع ذلك وأنت فى الدنيا ولكنك فرطت وأهملت فذق اليوم العذاب والنكال اوماربك بظلام للعبيد .

بل استمع معى — أرشدك الله — إلى ما حكاه الله تعالى من جواب المجرمين لأهل اليمين حين يسألونهم « ماسلككم فى سقر ؟ قالوا لم نك من المصلين ، ولم نك نطعم المسكين ، وكنا نخوض مع الخائضين ، وكنا نكذب بيوم الدين ، حتى أتانا اليقين » .

وقد قال العلماء : كل آية نزلت فى الكافرين تنسحب بمضمونها على عصاة المؤمنين .

وقد وصف الله المنافقين بأنهم إذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى . والمنافقون فى الدرك الأسفل من النار بنص القرآن الكريم . .

وروى الامام أحمد وابن حبان عن النبى صلى الله عليه وسلم وقد ذكرت الصلاة بين يديه فقال صلوات الله عليه « من حافظ عليها كانت له نوراً وبرهاناً ونجاة يوم القيامة ، ومن لم يحافظ عليها لم تكن له نوراً ولا برهاناً ولا نجاة ، وكان يوم القيامة مع قارون وفرعون وهامان وأبى بن خلف » .

وكفى بهذا زجراً لتارك الصلاة . فإن هؤلاء الأربعة هم رأس الكفر والضلال ، ومن كان معهم كان منهم . نعوذ بالله من الخذلان !

وعنه صلى الله عليه وسلم قال « بين الرجل وبين الكفر ترك الصلاة » وقال أيضاً « لاتشركوا بالله شيئاً ، ولا تتركوا الصلاة عمداً ، فمن تركها عمداً متعمداً فقد خرج من الملة » ومعلوم أن من خرج من ملة الاسلام دخل ملة الكفر والضلال .

وعنه صلى الله عليه وسلم قال : « يقول الله عز وجل : إنى فرضت على أمتك خمس صلوات ؛ وعهدت عندى عهداً أنه من جاء يحافظ عليهن لوقتهن أدخلته الجنة ، ومن لم يحافظ عليهن فلا عهد له عندى » رواه أبو داود .

ولو ذهبت أحصى لك الآيات والأحاديث الواردة فى عقاب تارك الصلاة لاحتجت إلى سفر مستقل . ويكفيك أن تعلم أن تاركها ملعون فى الأرض والسماء . ومن يختار لنفسه الطرد من رحمة الله فله جهنم وبئس المصير .

هذا وقد وعد الله المحافظين على أداء الصلاة بالفلاح والسعادة وإرث الجنة ؛ قال الله سبحانه وتعالى فى كتابه الكريم ، قد أفلح المؤمنون الذين هم فى صلاتهم خاشعون ... » الآيات .

وروى الامام مسلم فى صحيحه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « لن يلج النار أحد صلى قبل طلوع الشمس وقبل غروبها » ، ومعناه أن من صلى الفجر والعصر فى أوقاتهما وحافظ على تأدية باقى الصلوات لا يدخل النار » .

وروى البخارى ومسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « أرأيتم لو أن نهراً بباب أحدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرات هل يبقى من درنه شىء ؟ قالوا : لا يبقى من درنه شىء قال : فذلك مثل الصلوات الخمس : يمحوا الله بهن الخطايا » . ويفسر ذلك مارواه مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة كفارة لما بينهن ما لم تغش الكبائر » .

وعن ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « عليك بكثرة السجود فإنك لن تسجد لله سجدة إلا رفعك الله بها درجة ، وحط عنك بها خطيئة » رواه مسلم .

ومن المحافظة على الصلاة ، المبادرة بها فى أول مواقيتها ، ففى ذلك دليل على محبة الله ، وعلى المسارعة فى مرضاته . قال عليه الصلاة والسلام « أول الوقت رضوان الله ، وآخره عفو الله » .

أجنبى يشيد بفضل الصلاة فى الإسلام

قال توماس أرنولد فى كتابه (العقيدة الإسلامية) بصفحة ٢٩ ما ترجمته :

هذا الفرض المنظم من عبادة الله هو من أعظم الأمارات المميزة للمسلمين عن غيرهم فى حياتهم الدينية . فكثيراً مالاحظ السائحون وغيرهم فى بلاد المشرق ما لكيفية أدائه من التأثير فى النفوس . ودونك ما قاله فيه الأسقف (لوفرو) قال : لايستطيع أحديكون خالط المسلمين لأول مرة أن لا يدهش ويتأثر بمظهر عقيدتهم . فإنك حيثما كنت ، سواء أوجدت فى شارع مطروق أم فى محطة سكة حديدية أم فى حقل ، كان أكثر ما تألف عينك مشاهدته أن ترى رجلا ليس عليه أدنى مسحة للرياء ، ولا أقل شائبة من حب الظهور ، يذر عمله الذى يشغله كائنا ماكان ، وينطلق فى سكون وتواضع لأداء صلاته فى وقتها المعين ... ولننتقل من صلاة الفرد إلى صلاة الجماعة فنقول : إنه لا يأتى لأحد يكون قد رأى مرة فى حياته ما يقرب من خمسة عشر ألف مصل فى عرصة المسجد الجامع بمدينة دلهى — بالهند — يوم الجمعة الأخيرة من شهر الصيام (رمضان) وكلهم مستغرقون فى صلاتهم ، وقد بدت عليهم أكبر شعائر التعظيم والخشية فى كل حركة من حركاتهم ؛ نقول : انه لا يأتى لأحد يكون رأى ذلك المشهد أن لا يبلغ تأثره به أعماق قلبه ، وأن لا يلحظ ببصره القوة التى تمتاز بها هذه الطريقة من العبادة عن غيرها . على أن توقيت الأذان اليومى للصلاة بأوقات معينة حينما يرن به صوت المؤذن فى أبكر البكور قبل

الإسفار وعند الظهيرة والناس مضطربون ومصطخبون فى أعمالهم، وعند الإمساء — هذا الأذان الذى يحصل فى هذه الأوقات على تلك الصورة مشحون بذلك الجلال عينه .

ويقول رينان الحكيم الفرنسى : انه ما دخل مسجداً مرة إلا تأثر تأثراً شديداً بل شعر بشىء من الأسف أن لم يكن مسلماً ..

ولقد كان مشهد صلاة الجماعة سبباً فى إسلام رجل يهودى من أهالى الاسكندرية ١٢٩٨ ؛ حكى الرجل المذكور عن نفسه فقال : كنت مريضاً مرضاً شديداً ، فتمثل لى فى أثنائه أن هاتفاً يهيب بى أن أعلن الاسلام . ولما دخلت المسجد ورأيت المسلمين مصطفين للصلاة وقوفا كالملائكة ، سمعت فى نفسى صوتاً يناديني بقوله : هذه هى الجماعة التى أنبأ بها الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم . ولما رأيت الخطيب يتقدم للخطبة وعليه رداء سود ، وقع فى نفسى وجدان الرهبة والخشية .

ولما ختم خطبته بهذه الآية ، ن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ، يعظكم لعلكم تذكرون ، وأقيمت بعد ذلك الصلاة ، آنست من نفسى أنها سمت سمواً كبيراً ؛ فقد بدت لى صفوف المسلمين كأنها صفوف الملائكة ، وأن الله سبحانه وتعالى قد تجلى عليهم فى سجودهم وركوعهم ، وسمعت فى نفسى مناجياً يناجينى بقوله : إن الله

سبحانه إذا كان قد خاطب شعب إسرائيل مرتين فى جميع القرون الخالية ، فلا جرم أنه يخاطب هذه الجماعة فى كل وقت من أوقات صلاتهم ، واقتنعت فى نفسى بأنى خلقت لأكون مسلما .

أوصيكم بالصلاة

تلك كلمة ظل يرددها رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المرض الذى مات فيه حتى لجلج لسانه ولحق بالرفيق الأعلى .

والصلاة فرضت ليلة الاسراء والمعراج قبل الهجرة . وقد شرعت الصلاة فى جميع الأديان ، وهى فى شريعتنا ذات قيام وقراءة وركوع وسجود ، محدودة بأوقات تشمل طرفى النهار وزلفا من الليل ، يظهر العبد فيها غاية الخضوع والذلة والحاجة والافتقار لله رب العالمين ، شأن عباد الله المتقين الذين يرجون رحمته ويخافون عقابه ، تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعاً ، يعبدونه لذاته ، ويفوضون أمورهم إليه ، يعتمدون فى قضاء حوائجهم عليه ، أشداء على الكفار رحماء بينهم ، تراهم ركعاً سجداً ، يبتغون فضلا من الله ورضوانا ، سيماهم فى وجوههم من أثر السجود » .

وإنى أصف لك يوم السعداء :

السعيد فى يومه

إذا استيقظ من نومه مبكراً قال شاكراً لله الذى حفظه فى ليله ورعاه ، الحمد لله الذى أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور . ثم يتلو سيد الاستغفار وهو كما فى البخارى ، اللهم أنت ربى لا إله إلا أنت خلقتنى وأنا عبدك ، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت ، أعوذ بك من شر ما صنعت ، أبوء لك بنعمتك على وأبوء بذنبى ، فاغفر لى فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت ، من قال ذلك حين يصبح فمات دخل الجنة ، ومن قاله حين يمسى فمات دخل الجنة ، .فإذا أدى بعد ذلك صلاة الصبح والنفس مشرقة والروح صافية ، ودعا بما أحب ، وتلا ما تيسر من القرآن ، ودعا بهذا الدعاء الذى كان يدعو به الرسول صلى الله عليه وسلم عند خروجه من بيته ، وهو : « بسم الله ، رب أعوذ بك أن أزل أو أضل ، أو أظلم أو أظلم ، أو أجهل أو يجهل على » .

إن من يفعل ذلك لا شك يكون يومه مباركا كثير الخيرات ، ويخرج إلى عمله منشرح الصدر طيب النفس ، لا يفكر فى إيذاء أحد . ولا يحمل حقدا ولا ضغينة لمخلوق ، يلاقى اخوانه والنور يسطع على جبينه ، والبشر يتلألأ فى وجهه . فإذا حل وقت الظهر أداه شكرا لله على ما رزقه وأعطاه . وكذا إذا جاء وقت العصر وقف بين يدى غفار الذنوب يسأله غفران ذنوبه وستر عيوبه ،

ودعا بسيد الاستغفار المتقدم ، ويصلى المغرب والعشاء كلا فى وقته . فإذا أوى إلى مضجعه قال « باسمك ربى وضعت جنبى وبك أرفعه ، إن أمسكت نفسى فارحمها ، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين . باسمك نحيا وباسمك نموت . اللهم أسلمت وجهى إليك ، وفوضت أمرى إليك ، وألجأت ظهرى إليك ، رغبة ورهبة إليك . لا ملجأ ولا منجى منك إلا اليك ، آمنت بكتابك الذى أنزلت . ونبيك الذى أرسلت » . فإن قلت ذلك وكنت على وضوء ، وكنت على شقك الأيمن ، ومت من ليلتك فأنت على الفطرة . أخبر بذلك سيد البشر صلى الله عليه وسلم .

شخص يكون حاله ما ذكر ، جدير أن تفتح أبواب الخيرات على يديه ، وتفاض نعم الله عليه .

كيفية الصلاة

سبق أن شرحت لك الوضوء عمليا . وكذلك أبين لك الصلاة بحيث لو اتبعت ما سأذكره لك ، صحّت صلاتك على كل مذهب ، وكانت تامة كاملة ، وصعدت إلى السماء ولها نور ، تقول : حفظك الله كما حفظتنى .

فإذا أراد المرء الصلاة قام (هذا للصحيح ، وستمر بك صلاة المريض) فكبر تكبيرة الإحرام رافعا يديه حذاء منكبيه

أو أذنيه ، ثم يقرأ فاتحة الكتاب ومعها ما تيسر من السور أو الآيات ، ثم ركع حتى يطمئن راكعا يقول فى ركوعه : سبحان ربى العظيم ثلاثا . ثم يرفع رأسه من الركوع حتى يعتدل ويطمئن قائما قائلا : سمع الله لمن حمده ، أو ربنا ولك الحمد . ثم يسجد على جبهته وأنفه بين كفيه حتى يطمئن ساجداً قائلا فى سجوده: سبحان ربى الأعلى ثلاثا ، ويدعو الله بما أحب ، مثل « ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار » . ثم يرفع رأسه من السجود حتى يطمئن جالسا قائلا : الله أكبر . ثم يسجد مثل سجوده الأول ؛ يفعل ذلك فى صلاته كلها . وفى الركوع ضع كفيك على ركبتيك وفرج بين أصابعك ، وارفع يديك عن جنبيك . وفى السجود ضُم أصابعك ، وعلى رأس كل ركعتين تجلس لقراءة التشهد ، تفترش اليسرى وتقيم اليمنى .

والصلوات خمس فى اليوم والليلة : الصبح ركعتان ، والظهر أربع ، والعصر كذلك ، والمغرب ثلاث ركعات ، والعشاء أربع . ففى الركعتين الأوليين فى كل الفرائض وفى جميع ركعات النفل تقرأ فاتحة الكتاب ومعها ماتيسر من القرآن ، وفيما عدا الركعتين الأوليين من الفرض تقرأ الفاتحة فقط . هذا إذا كنت منفرداً ؛ فإن كنت مأموما فبعض الأئمة يعفيك من القراءة مطلقاً ، وبعضهم يقول يقرأ المأموم فى الصلاة السرية ويسكت فى الجهرية ، وبعضهم

يوجب القراءة مطلقاً ؛ سواء كانت الصلاة سراً أم جهراً .

وقال بعض العلماء : إذا كان الإمام يسكت بين الفاتحة والسورة يحسن بالمأموم أن يقرأ الفاتحة ، وإن لم يستطع فقراءة الإمام له قراءة .

وقد حكى أبو هريرة رضى الله عنه صلاة النبى صلى الله عليه وسلم فقال « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قام إلى الصلاة يكبر حين يقوم ، ثم يكبر حين يركع ، ثم يقول سمع الله لمن حمده حين يرفع صلبه من الركعة ، ثم يقول وهو قائم : ربنا ولك الحمد ، ثم يكبر حين يهوى ، ثم يكبر حين يرفع رأسه ، ثم يكبر حين يسجد ، ثم يكبر حين يرفع رأسه ، ثم يكبر حين يسجد ، ثم يكبر حين يرفع رأسه ، ثم يفعل ذلك فى الصلاة كلها حتى يقضيها ، ويكبر حين يقوم من الثنتين بعد الجلوس » اهـ البخارى

صلاة المريض

إياك أخى إذا شعرت بمرض أن تترك الصلاة فإنها تقربك من الله ، وأنت فى أشد الحاجة إلى رحمته . فإن استطعت أن تؤديها قائماً فافعل ، وإن عجزت عن القيام أو قدرت ولكن يصيبك بسبب القيام آلام فصلِّ وأنت جالس ، تركع وتسجد ؛ فإن عجزت عن ذلك فصلِّ على جنبك الأيمن أو الأيسر بحسب قدرتك ، تومىء برأسك إلى القبلة إيماء بدون ركوع ولا سجود ؛ وينبغى أن يكون

إيماؤك للسجود أخفض منه فى الركوع ، وإن لم تقدر فاستلق على ظهرك واجعل رجليك إلى القبلة وأومىء بالركوع والسجود ، فإن لم تستطع فعليك بالتسبيح والذكر والدعاء وكثرة الاستغفار وإظهار الندم على مافات . ختم الله لنا بالسعادة ، ورزقنا الحسنى وزيادة .

التشهـــد

ورد التشهد بصيغ كثيرة ، وأصح ما ورد فيه حديث ابن مسعود ، ونصه قال « كنا إذا صلينا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم نقول : السلام على الله ، السلام على جبريل ، السلام على ميكائيل . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لاتقولوا السلام على الله ، فإن الله هو السلام ، ولكن قولوا « التحيات لله والصلوات والطيبات السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته ، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين . أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله » . ووردت روايات بصيغ مختلفة فى الصلاة والسلام على النبى عقب التشهد .

ويكفيك أن تقول هذه الصيغة ، وهى :

اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على ابراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد . اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم فى العالمين إنك حميد

مجيد » . وكان النبي صلى الله عليه وسلم يسلم عن يمينه يقول : السلام عليكم ورحمة الله حتى يرى بياض خده الأيمن ، ويسلم عن يساره يقول : السلام عليكم ورحمة الله حتى يرى بياض خده الأيسر

وكان إذا جلس للتشهد أضجع رجله اليسرى ، ونصب اليمنى ، ووضع يده اليمنى على فخذه اليمنى ، ونصب أصبعه للدعاء (الشهادة) ، ووضع يده اليسرى على رجله اليسرى ، وكان يرمى ببصره إلى أصبعه فى التشهد . و « لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة » .

ما يقول المصلى

بعد تكبيرة الإحرام

عن جابر بن عبد الله قال : كان النبى صلى الله عليه وسلم إذا استفتح كبر ثم قال « إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين لا شريك له ، وبذلك أمرت وأنا من المسلمين . اللهم اهدنى لأحسن الأعمال وأحسن الأخلاق ، لا يهدى لأحسنها إلا أنت ، وقنى سيء الأعمال والأخلاق ، لا يقى سيئها إلا أنت » .

وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم كان إذا افتتح الصلاة قال « سبحانك اللهم وبحمدك ، تبارك اسمك وتعالى جدك ، ولا إله غيرك » .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسكت بين التكبير وبين القراءة ، فقلت بأبى وأمى

يا رسول الله أسكوتك بين التكبير والقراءة ما تقول؟ قال: أقول: اللهم باعد بينى وبين خطاياى كما باعدت بين المشرق والمغرب. اللهم نقنى من الخطايا كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس. اللهم أغسل خطاياى بالماء والثلج والبرد». وكل ما قدمته لك أحاديث صحيحة.

وأنت بالخيار تستفتح صلاتك بأى ذلك شئت.

وضع اليدين فى الصلاة

لم يرد عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه أرخى يديه فى الصلاة، بل الوارد أنه كان يقبض بيمينه على شماله. فقد روى علقمة بن وائل عن أبيه رضى الله عنه قال: رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا كان قائماً فى الصلاة قبض بيمينه على شماله». وقال ابن مسعود رضى الله عنه: «رآنى النبى صلى الله عليه وسلم وقد وضعت شمالى على يمينى فى الصلاة، فأخذ بيمينى فوضعها على شمالى».

ومن هذا يعلم أن وضع اليد اليمنى على اليسرى فى الصلاة من سنن النبى صلى الله عليه وسلم.

فضل الصلاة فى المساجد

مع الجماعة

المساجد بيوت المتقين: «أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه.

يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار » .

وصلاة الفريضة مع جماعة المسلمين تفضل صلاة الرجل وحده بخمس وعشرين صلاة ، وفى رواية بسبع وعشرين .

فعن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « صلاة الرجل فى جماعة تضعف — تزيد — على صلاته فى بيته وفى سوقه خمسة وعشرين ضعفاً ، وذلك أنه إذا توضأ فأحسن الوضوء ثم خرج إلى المسجد لا يخرجه إلا الصلاة ، لم يخط خطوة إلا رفعت له بها درجة ، وحطت عنه خطيئة ، فإذا صلى لم تزل الملائكة تصلى عليه مادام فى مصلاه مالم يحدث ، تقول : اللهم صل عليه ، اللهم ارحمه ، ولا يزال فى صلاة ما انتظر الصلاة » . رواه البخارى .

وفى رواية له « من غدا إلى المسجد أو راح أعد الله له فى الجنة نزُلا كلما غدا أو راح » .

وفى حديث « بشر المشائين — الذين يكثرون المشى — فى الظلم إلى المساجد بالنور التام يوم القيامة » .

وإنما يرغب نبينا عليه السلام فى صلاة الجماعة والحضور إلى المساجد ، ليرشدنا إلى أن الإسلام دين ألفة واجتماع ومودة ووئام .

فبالاجتماع يمكن التشاور والتعاون بما يعود على الإسلام والمسلمين بالنفع العام .

من أم بالناس فليخفف

هذه جملة مروية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فهم منها بعض الناس أن الإمام يلزمه أن يكون كالآلة التى تسرع فى إنجاز عملها ، فلا خشوع ولا طمأنينة . ألا فليعلم أهل الإيمان أن أقل تسبيح فى الصلاة الكاملة : فى الركوع ثلاث ، وفى السجود كذلك ، ومن نقص فقد أساء . فقد قال أنس بن مالك فى صفة صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كان يصلى ، فإذا رفع رأسه من الركوع قام حتى نقول قد نسى » . وثبت أن ركوع النبى وسجوده ورفعه من الركوع وبين السجدتين كان قريباً من السواء . وإليك حديثا يبين بطلان الصلاة الخالية من الطمأنينة :

صلِّ فانك لم تصل

روى البخارى وغيره عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل المسجد فدخل رجل فصلى وسلم على النبى صلى الله عليه وسلم ، فرد وقال : « ارجع فصل فانك لم تصل » . فرجع فصلى كما صلى ثم جاء فسلم على النبى صلى الله عليه وسلم فقال : « ارجع فصل فانك لم تصل » ثلاثا . فقال : والذى

بعثك بالحق ما أحسن غيره ، فعلمنى . فقال : إذا قمت إلى الصلاة فكبر ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن ، ثم اركع حتى تطمئن راكعاً ، ثم ارفع حتى تعتدل قائما ، ثم اسجد حتى تطمئن ساجداً ، ثم ارفع حتى تطمئن جالساً . وافعل ذلك فى صلاتك كلها » .

وروى البخارى عن أبى وائل عن حذيفة رضى الله عنه أنه رأى رجلا لا يتم ركوعه ولا سجوده ، فلما قضى صلاته قال له حذيفة : ما صليت ! قال وائل : وأحسبه قال : لو متَّ مت على غير سنة محمد » .

وفى حديث آخر « أسوأ الناس سرقة الذى يسرق من صلاته . قالوا : يارسول الله كيف يسرق من صلاته ؟ قال : لا يتم ركوعها ولا سجودها » .

نعم ينبغى للإمام أن يخفف الصلاة ، وبالأخص فى زماننا هذا ، ولكن يجب أن يحافظ على تأديتها كاملة ، فلا يقصر فى ركن ، ولا يترك سنة ، وإن إماماً يصلى بالناس ينقر نقر الغراب لا يتم ركوعا ولا سجوداً لهو من المسيئين ، بل هو أسوأ قدوة وشرُّ إمام.

ومن يستدل بما وضعناه عنوانا لهذا الموضوع على الإسراع فى الصلاة ، أذكر له أصل الحديث عله يرجع إلى الحق ، ويثوب إلى الرشد . والحديث قاله الرسول لمعاذ بن جبل :

فقد كان سيدنا معاذ يصلى مع النبى صلى الله عليه وسلم ثم يرجع

فيؤم قومه ، فصلى العشاء فقرأ بالبقرة ، فانصرف رجل من المصلين ، فكأن معاذا تناول منه ، فبلغ النبي ذلك ، فقال : فتان ! فتان ! فتان ! وأمره بسورتين من أوسط المفصّل . وفى بعض الروايات قال له : « فلولا صليت بسبح اسم ربك الأعلى ، والشمس وضحاها ،، والليل إذا يغشى ! فإنه يصلى وراءك الكبير والضعيف وذو الحاجة » ولعلى أكون قد أرشدتك فى هذا الموضوع ، فتعطى صلاتك حقها ، وبالله التوفيق.

تسوية الصفوف

وفضل الصـــف الأول

عن جابر بن سَمُرة رضى الله عنه قال : خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « ألا تصفون كما تصف الملائكة عند ربها » فقلنا : يارسول الله وكيف تصف الملائكة عند ربها ؟ قال : يتمون الصفوف الأولى ويتراصون فى الصف » .

وقال صلى الله عليه وسلم : خير صفوف الرجال أولها ، وشرها آخرها ؛ وخير صفوف النساء آخرها ، وشرها أولها » . رواه مسلم .

وعن البراء بن عازب رضى الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتخلل الصف من ناحية إلى ناحية يمسح صدورنا ومناكبنا يقول : « لا تختلفوا فتختلف قلوبكم » . وكان يقول « إن

الله وملائكته يصلون على الصفوف الأول » . رواه أبو داود .

كل هذه الأحاديث الشريفة ، وأمثالها كثير ، يُظهر لك فضل الصلاة فى الصف الأول ، والأمر بتسوية الصفوف .

صـــلاة الجمعة

هى فرض عين على كل مكلف ، لا يتخلف عنها من غير عذر شرعى إلا من طبع الله على قلبه . فعن عبدالله بن عمر وأبى هريرة أنهما سمعا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول على أعواد منبره : « لينتهين أقوام عن ودْعهم — تركهم — الجمعات ، أو ليختمن الله على قلوبهم ، ثم ليكونن من الغافلين » رواه مسلم .

ويوم الجمعة هو خير الأيام ، وفيه ساعة يجيب الله فيها الدعاء . ففى الحديث « خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة . فيه خلق آدم ، وفيه أدخل الجنة ، وفيه أخرج منها » رواه مسلم .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر يوم الجمعة فقال : « فيه ساعة لا يوافقها عبد مسلم وهو قائم يصلى يسأل الله شيئا إلا أعطاه إياه ، وأشار بيده يقللها » . البخارى ومسلم .

ومن شعارها : النظافة ، نظافة الجسم والثياب ، واستعمال الطيب . فعن سلمان رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله

عليه وسلم : « لا يغتسل رجل يوم الجمعة ويتطهر ما استطاع من طهر ويدهن من دهن ، أو يمس من طيب بيته ، ثم يخرج فلا يفرق بين اثنين ، ثم يصلى ما كتب له ، ثم ينصت إذا تكلم الإمام ، إلا غفر له ما بينه وبين الجمعة الأخرى » البخارى .

وهذا يبين ما للنظافة من شأن . و « النظافة من الإيمان » .

ومن المنهى عنه يوم الجمعة إيذاء المسلمين الذين حضروا الصلاة بأكل ذى الرائحة الكريهة ، كالبصل ، والكراث ، وغيرهما ؛ فقذَر الثياب والجسم يكون النهى فيه آكد وأشد .

ومن المرغب فيه يوم الجمعة : الإكثار من الصلاة والسلام على النبى صلى الله عليه وسلم . فعن أوس بن أوس رضى الله عنه قال: قال صلى الله عليه وسلم « إن من أفضل أيامكم يوم الجمعة ، فأكثروا علىَّ من الصلاة فيه ، فان صلاتكم معروضة على » رواه أبو داود .

وقد أكثرت عليك فى الصلاة ، فاستروح معى إلى تلك الحكاية الوعظية ، وبعد ذلك أذكر لك فصولا نختم بها القول فى الصلاة .

إلى المترفين

قال رجل : خرجنا من المدينة نريد حج البيت ، فلما كنا بالراوية نزلنا ، فوقف بنا رجل عليه ثياب رثة ، وله منظر وهيبة وصورة جميلة ، فقال : من يبغى خادماً ؟ من يبغى ساقياً ؟ فقلت :

دونك هذه القربة . فأخذها وانطلق ، فلم يلبث إلا يسيراً حتى أقبل وقد امتلأت أثوابه طيناً ، وأثرت القربة فى كتفيه ، فوضعها وهو كالمسرور الضاحك ، ثم قال : ألكم غيرها ؟ قلنا لا ؛ وأطعمناه قرصاً بارداً . فأخذه وحمد الله سبحانه ، ثم اعتزل وقعد يأكل أكل الجائع ، فأخذتنى عليه الشفقة ، فقمت إليه بطعام طيب كان معنا وأكثرت له منه ، فقلت : قد علمت أنه لم يقع منك القرص بموقع ، فدونك هذا الطعام . فنظر فى وجهى وتبسم وقال : ياعبدالله إنما هى فورة جوع فلا أبالى بأى شىء رددتها عنى ! فرجعت عنه . فقال لى رجل إلى جنبى : أتعرفه ؟ قلت لا . قال : إنه رجل من بنى هاشم من ولد العباس بن عبد المطلب ، وكان يسكن البصرة ، فناب ، فخرج منها ففُقد فما عرف له أثر . فأعجبنى قوله ، ثم اجتمعت به ولاطفته وقلت له : يافتى أنا رجل من إخوانك ، وقد عرفت موضعك ، فأحب الاتصال بك ، فهل لك أن تعادلنى فإن معى فضلا من راحلتى؟ فقال : جزاك الله عنى خيراً ، ولو أردت هذا لكان لى معداً

ثم حدثنى حديثه فقال : أنا رجل من ولد العباس ، كنت أسكن البصرة ، وكنت ذا كبر شديد وتجبر ، وإنى أمرت خادماً أن تحشو لى فراشاً من حرير ومخدة بورد نثير ؛ فبينما أنا نائم إذا بقمع وردة قد غفلت عنه الخادمة ، فقمت إليها فأوجعتها ضرباً ثم عدت إلى مضجعى بعد إخراج القمع من المخدة ، فأتانى آت

فى منامى فى صورة فظيعة فهزنى وقال لى : أفق من غشيتك ، وأبصر من حيرتك ، ثم أنشأ يقول :

ياخد إنك إن توسد لينـاً وسدت بعد الموت صم الجندل
فامهد لنفسك صالحاً تسعد به فلتندمن غـداً إذا لم تفعل

قال : فانتبهت من نومى فزعاً ، وخرجت من ساعتى هارباً إلى ربى . فهذا خبرى ! ثم مضى .

صلاة المسافر

يريد الله سبحانه وتعالى بعباده فيما شرع لهم من الأحكام اليسر ولا يريد بهم العسر ، فلا يكلف سبحانه الخلق ما فيه عسر ومشقة « وما جعل عليكم فى الدين من حرج » .

ولما كان السفر قطعة من العذاب ، لما فيه من المشقات ، ومفارقة الأهل ، ومخاوف الطريق ، وتوقع الأخطار ، رخص للمسافر قصر الصلاة ؛ فيصلى الظهر ركعتين ، والعصر والعشاء كذلك . ويبقى الصبح والمغرب على حالها « ذلك تخفيف من ربكم ورحمة » .

ولا أدرى ما يمنع المسلم من تأدية الصلاة وهو مسافر . وما أجمله منظراً حين يقوم الرجل للصلاة والقطار يسير ، لعله يتذكر وهو واقف بين يدى الله أن مثل الحياة الدنيا فى سرعتها وانقضائها وفناء من عليها كمثل القطار السريع ، يقطع المسافات البعيدة فى الزمن

اليسير . ولصلاة المسافر ومقدار المسافة التى يصح فيها القصر تفصيلات فى كتب الفقه ، فارجع إليها إن شئت .

صلاة التطوع

عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : «مامن عبد مسلم يصلى كل يوم ثنتى عشرة ركعة تطوعاً غير الفريضة إلا بنى الله له بيتاً فى الجنة : أربعا قبل الظهر ، وركعتين بعدها ، وركعتين بعد المغرب ، وركعتين بعد العشاء ، وركعتين قبل صلاة الغداة » .

وصلاة التطوع تشمل صلاة الوتر (أبو حنيفة يقول بوجوبه ثلاث ركعات وفى آخرهن القنوت) وصلاة التراويح فى رمضان ، وكل نفل غير الفرائض . وأفضل الصلاة صلاة الليل . فى الحديث : «وصلوا بالليل والناس نيام تدخلوا الجنة بسلام» .

السهو فى الصلاة

المرء عرضة للذهول فى بعض الأوقات ، وللشك والنسيان فليست العصمة من ذلك إلا لله رب العالمين .

وفى الحديث عن أبى هريرة رضى الله عنه قال « صلى النبى صلى الله عليه وسلم إحدى صلاتى العشى — الظهر — ركعتين ، ثم قام إلى خشبة فى مقدم المسجد ، فوضع يده عليها ، وفى القوم أبو بكر وعمر ، فهابا أن يكلماه ، وخرج سرعان الناس — هموا بالخروج

مسرعين — فقالو (بعض الصحابة) : أقصرت الصلاة ؟ ورجل يدعوه النبي صلى الله عليه وسلم ذا اليدين ، فقال يارسول الله أنسيت أم قصرت الصلاة ؟ فقال : لم أنس (فى ظنى) ولم تقصر ، فقال : بلى قد نسيت . فصلى ركعتين ثم سلم ، ثم كبر ثم سجد مثل سجوده أو أطول ، ثم رفع رأسه وكبر ، رواه البخارى .

ويؤخذ من هذا الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم سها فى صلاته ؛ وسهوه صلوات الله عليه للتشريع ، ولتعليمنا كيفية صحة صلاتنا إذا سهونا . فمن سلم على رأس الركعتين فى الظهر أو العصر أوالمغرب أوالعشاء ، أو ترك الجلوس كذلك ، أو قام من جلوس الرابعة أو ترك قراءة السورة سهواً فى الأوليين ، لزمه فى كل ذلك أن يسجد للسهو سجدتين ، ويتشهد ويسلم .

كذلك من شك فى صلاته صلى أربعا أم ثلاثا ، لزمه أن يبنى على الأقل — أو على يقينه — ويأتى بما يتم صلاته ، ويسجد للسهو . وقد ثبت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سجد للسهو قبل السلام وبعد السلام . والكل جائز ، والأئمة كلهم من رسول الله ملتمس .

والمأموم إن سها فلاشىء عليه . أما إن سها الإمام فعليه السجود للسهو ، وعلى من خلفه ؛ فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم ، ليس على من خلف الإمام سهو ، فإن سهى الإمام فعليه وعلى من خلفه ، روا الترمذى والبيهقى .

وقد أكثرت عليك فى ذكر أبواب الصلاة ، لأنها عماد الدين، من أقامها أقامه ، ومن تركها هدم دينه ؛ ولأن كثيراً من الناس قد فرطوا فى المحافظة عليها ، لاهتمامهم بحظوظهم النفسية ومتعهم الجسدية ، أو لاشتغالهم بمصالحهم الدنيوية وتكالبهم على حطام الدنيا الفانى ؛ وإلى هؤلاء وأولئك نسوق قول الله تعالى «يأيها الذين آمنو لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله . ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون » . ومع ذلك فقد تركت أبوابا كثيرة مثل صلاة الجنائز والعيدين والاستسقاء والخوف . . . . فإن أردت التفقه فى صلاتك فعليك بكتاب الفقه على المذاهب الأربعة الذى قامت بطبعه وزارة الأوقاف .

الأذان

لما كانت الصلاة هى العماد الأقوى لهذا الدين الحنيف ؛ حيث إنها تذكر العبد بمولاه ، وتصل روحه بالذى خلقه وسواه ، والإسلام دين اجتماع وألفة ، وتآخ ومحبة ، لذلك حبب إلى أبناء الإسلام المحافظة على ما يجمع شملهم ، ويربط قلوبهم ويذكرهم ببعضهم ، فشرع للمؤمنين الصلاة ، ورغب أن تؤدى جماعة ، . كى تكثر المحبة والتواد ، والرابطة تقوى والميل يزداد : والصلاة تتكرر كل يوم خمس مرات ، فكيف يعرفون الأوقات ، وماذا

يفعلون عند إرادة الاجتماع للصلاة ؟ لا بد من أمر به يستيقظ الغافل . ويذكر الساهى . فاجتمع النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه يتشاورون فى ذلك ، فقال رجل : نوقد نارا على أعلى جبل وفى ذلك ما يكفى لإعلان المؤمنين بحلول وقت الصلاة ، فلم يقبل النبي صلى الله عليه وسلم ذلك . وقال آخر : نرفع راية ، فرفض ذلك أيضاً . وقال آخر : ننفخ فى بوق ، فلم يقبل . وقال آخر : نضرب ناقوسا فلم يقبل ذلك . وقال آخر : ننادى للصلاة . فقبل هذا الاقتراح . وبعد ذلك رأى عبد الله بن زيد أحد المنادين للصلاة رؤيا نقصها عليك كما وردت فى الحديث الصحيح ، ونصه :

« لما كثر الناس ذكروا أن يعلموا وقت الصلاة بشيء يجمعهم لها ، فقالوا : لو اتخذنا ناقوسا . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ذلك للنصارى . فقالوا : لو اتخذنا بوقا . قال : ذلك لليهود . فقالوا : لو رفعنا نارا . قال : ذلك للمجوس . فافترقوا . فرأى عبد الله ابن زيد ، فجاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : « طاف بى وأنا نائم رجل فقال : تقول الله أكبر ، الله أكبر ، الله أكبر ، الله أكبر . أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن محمداً رسول الله ، أشهد أن محمداً رسول الله . حى على الصلاة حى على الصلاة ، حى على الفلاح ، حى على الفلاح ، الله أكبر

الله أكبر ، لا اله إلا الله . قال : فلما أصبحت أتيت رسول صلى الله عليه وسلم ، فقال : انها لرؤيا حق » .

ثم قال له لقن ذلك بلالا فإنه أندى منك صوتاً . وبينما بلال يؤذن إذ أتى عمر يجر رداءه ، فقال : والله لقد رأيت مثله يارسول الله وكان بلال يقول فى أذان الصبح بعد حى الفلاح : الصلاة خير من النوم ، مرتين ، وأقره الرسول صلى الله عليه وسلم على ذلك . وكان يأمر بلالا فى فجر رمضان بأذانين ، أحدهما تنبيها للغافلين حتى لا يفوتهم السحور ، والأذان الثانى للصلاة . وأما أذان الجمعة فكان أوله إذا جلس الإمام على المنبر فى عهد النبى صلي الله عليه وسلم وأبى بكر وعمر ، فلما كثر الناس فى زمن عثمان واشتغلوا بأمور الدنيا ، زاد أذانا آخر على الزوراء وأبقى الأول كما كان . وفى عهد هشام بن عبد الملك جعل الأذان الذى زاده عثمان على المنار وجعل الأذان الذى كان على المنار ، بين يديه . وإلى ما قبل صلاح الدين الأيوبى كان المؤذن يقول عقب الأذان : الصلاة والسلام عليك ياأمير المؤمنين ، حى على الصلاة فجاء صلاح الدين وأمر أن يبدل ذلك بالصلاة والسلام عليك يا رسول الله .

وقد ولع المسلمون بهذه الزيادة وانقسموا إلى فريقين ، كل فريق يضلل الآخر ؛ ففريق يقول إن هذه الزيادة لم ترد عن الرسول صلى الله عليه وسلم ولا عن أصحابه ولا عن واحد من الأئمة الأربعة ،

ونحن أمرنا بالاتباع ونهينا عن الابتداع ، وكل بدعة ضلالة . . . كما فى الحديث . والفريق الآخر يقول لا بأس بالصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم عقب الأذان ، وهو بدعة حسنة .

والذى أنصح به إخوانى المسلمين وأرجو لهم به السلامة ، أن يقفوا عند ما جاء عن الرسول صلى الله عليه وسلم وأن لا يزيدوا شيئاً ، فإن أبوا فليترك الأمر للمؤذن ، فإن صلى وسلم على النبى صلى الله عليه وسلم بعد الأذان بينا له السنة بالحسنى ، وإن ترك ذلك ووقف عند الأذان الشرعى حمدنا له فعله . « ولقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة » .

وأما الاقامة فقد اختلفت فيها الروايات ، فرواها محمد بن ادريس الشافعى مفردة إلا لفظ «قد قامت الصلاة» فثنى . ورواها مالك بن أنس مفردة كلها . ورواها أبو حنيفة النعمان مثنى كلها .

وإنى ذاكر لك بعض ما ورد من فضل الدعاء بين الآذان والاقامة: عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «لا يرد الدعاء بين الأذان والإقامة » ، رواه النسائى . والحديث دليل على قبول الدعاء بين الأذان والاقامة. وإليك بعض الأدعية الواردة :

(١) أن يقول « رضيت بالله رباً ، وبالاسلام ديناً ، وبمحمد رسولا » قال صلى الله عليه وسلم : إن من قال ذلك غفر له ذنبه .

(٢) أن يصلى ويسلم على النبى صلى الله عليه وسلم .

(٣) أن يقول بعد صلاته عليه « اللهم رب هذه الدعوة التامة

والصلاة القائمة آت محمداً الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاماً محموداً الذى وعدته ، وهذا فى البخارى . وزاد غيره : إنك لا تخلف الميعاد .

وأخرج الترمذى من حديث أم سلمة رضى الله عنها قالت : علمنى رسول الله أن أقول عند أذان المغرب « اللهم هذا إقبال ليلك ، وإدبار نهارك ، وأصوات دعائك ، فاغفر لى » .

ووردت أدعية كثيرة غير هذه ، فاختر لنفسك ما يحلو .

كرامة سيدنا محمد عند ربه

الاستسقاء

عن أنس بن مالك أن رجلا دخل المسجد يوم جمعة من باب كان نحو دار القضاء ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم قائم يخطب فاستقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال: يا رسول الله هلكت الأموال وانقطعت السبل ، فادع الله يغيثنا . فرفع رسول الله صلى الله عليه وسلم يديه ثم قال : اللهم أغثنا ، اللهم أغثنا ، اللهم أغثنا ! . قال أنس : ولا والله ما نرى فى السماء من سحاب ولا قزعة (القطعة الرقيقة من السحاب) وما بيننا وبين سلع (جبل) من بيت ولا دار ، قال : فطلعت من ورائه سحابة مثل الترس ، فلما توسطت السماء انتشرت ثم أمطرت ، فلا والله ما رأينا الشمس ستا . ثم دخل رجل من ذلك الباب فى الجمعة ورسول الله صلى الله عليه وسلم قائم يخطب ، فاستقبله قائما ، فقال : يا رسول الله هلكت الأموال وانقطعت السبل ،

فادع الله يمسكها عنا . قال : فرفع رسول الله صلى الله عليه وسلم يديه ثم قال : اللهم حوالينا ولا علينا ! اللهم على الآكام والظراب وبطون الأودية ومنابت الشجر ! قال : فأقلعت وخرجنا نمشى فى الشمس ، رواه البخارى . وقال عمر بن حمزة حدثنا سالم عن أبيه : ربما ذكرت قول الشاعر (هو أبو طالب) وأنا أنظر إلى وجه النبى صلى الله عليه وسلم يستسقى فما ينزل حتى يجيش كل ميزاب :

وأبيض يستسقى الغمامُ بوجهه ثمالُ اليتامى عصمة للأرامل

رواه البخارى . والسبب فى قول أبى طالب هذا البيت ماورد أن أهل مكة أصابهم قحط فقالت قريش : يا أبا طالب أقحط الوادى وأجدب العيال فهلم فاستسق ! فخرج أبو طالب ومعه غلام (هو النبى صلى الله عليه وسلم) كأنه شمس تجلت عنه سحابة قتماء وحوله أغيلمة . فأخذه أبو طالب وألصق ظهره بالكعبة ولاذ الغلام بإصبعه وما فى السماء قزعة ، فأقبل السحاب من هاهنا وهاهنا ، واغدودق ، وانفجر له الوادى ، وأخصب النادى والبادى ، فأنشد أبو طالب :

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل

رواه ابن عساكر .

وللاستسقاء صلاة كصلاة العيد : ركعتين تصلى فرادى وجماعة ، ويخطب لها خطبتان فيهما ثناء على الله ودعاء والتجاء إليه فى أن ينزل الغيث ويرحم العباد .

فكاهة وعظة

روى سمير أن بعض الكبراء سمع برجل مجاب الدعوة عند الله، فذهب إليه وتظاهر بمظهر الضيف ، فأضافه الرجل فأقام عنده ثلاث ليال سوياً ، فلم ير شيئاً غريبا من زيادة عبادة أو طاعة ؛ وليس إلا المحافظة على الصلاة فى أوقاتها .

فسأله عن سبب إجابة دعائه ، فقال : ياهذا تلك دعوة نفس عضها الجوع ، وصدقت لله فى السجود والركوع ، فأجاب دعاها ، وأعطاها مناها . قال : وكيف ذلك ؟ فحدثه أنه حصل فى البلد قحط فى سنة من السنين ، وفى ليلة قرع الباب طارق فخرجت وإذا فتاة جميلة كأنها الشمس المنيرة فشكت إلى مابها من جوع . فحادثتها ثم راودتها عن نفسها ، فقالت : الموت ولا معصية ربى ! ثم رجعت من حيث أتت . وبعد أيام عادت وتوسلت إلى ، فقلت كما قلت أولا ، فبكت ، ثم دخلت البيت وقد أشرفت على الهلاك ، ثم قالت : تطعمنى لوجه الله ! قلت : لا إلا أن تمكنينى من نفسك ! فقالت : الموت خير من عذاب الله ! ثم قامت فسرت وراءها فسمعتها تقول:

أيا واحداً إحسانه شمل الخلقا ... بسمعك ماأشكو، بعينك ماألقى
لقد صدمتنى شدة وخصاصة ... ونازلنى مابعضه يمنع النطقا
كأنى ظمآن ترى الماء عينه ... فلا غلة ترى ولا شربة تسقى
تنازعنى نفسى إلى نيل أكلة ... لذاذتها تفنى وغصتها تبقى

أأعصيك بعد الفضل والجود والهدى
وكيف وبالطاعات أستجلب الرزقا
سأتلفها فى نيل حبك سيدى
عساى بها أستوجب القرب والعتقا

فجزعت لما سمعت ، ثم دخل فى قلبى الإيمان بالله وحب الخير ؛ فقلت لها : عودى وكلى ما شئت لله ! فعادت وهى فى حال ضعف لا يكاد يسمع لها صوت . فلما عرفت صدق نيتى ورأتنى قدمت لها الطعام وعرضت عليها ما شاءت ، قالت: اللهم كما أنرت قلبه وهديت لبه، فأجب دعاءه ولا ترده خائباً ! فكان ما دعت به ، وصارت لى زوجة ، والحمد لله .

الصيام

مهذب النفوس ، ومصفى الأرواح ، ومطهر الأجسام . فله الأثر العجيب فى حفظ القوى الباطنة ، وحمايتها من الخلط الذى يضر بالجسم ويفسد المعدة. وفيه من تعويد المرء تحمل المشاق وكبح جماح النفس والصبر وتربية الإرادة مالا ينكره إنسان له عقل وتفكير .

ومن فوائده المحسوسة : احساس الصائم بحاجة الفقراء إلى المساعدة والمعونة ؛ لذا أوجبه الله على جميع الأمم « يأيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون » .

والصوم : هو امتناع الشخص عن تناول الطعام والشراب والمباشرة يوما كاملا « من بزوغ الفجر إلى غروب الشمس » .

وكما أن الصائم مأمور بالإمساك عن الشراب والمباشرة والطعام ؛ مأمور بترك القبيح من الكلام . ففى الحديث « من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة فى أن يدع طعامه وشرابه.

فان سابه أحد أو شاتمه فليقل « إنى صائم ، انى صائم »؛ إشارة إلى أن الصوم ينزه النفس ويطهرها ويكبح جماحها ، فلا ينبغى للصائم أن يبدأ بالسب ، ولا أن يجاوب عليه .

وفى ذلك يقول النبى صلى الله عليه وسلم « الصيام جنة (وقاية) فلا يرفث ولا يجهل ؛ وإن امرؤ قاتله أو شاتمه فليقل إنى صائم — مرتين والذى نفسى بيده لخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك ! يترك طعامه وشرابه وشهوته من أجلى . الصيام لى وأنا أجزى به ، والحسنة بعشر أمثالها » .

فإن رأيت « رجلا » تغير خلقه فى أيام الصوم ، من الحلم إلى الغضب ، ومن اللين إلى الشدة ، فاعلم أن الصوم لم يهذب نفسه ولم يقمع شهوته ، ولاثواب له فى صومه . فالصوم دواء لتعويد كظم الغيظ وتحمل المصادمات : فإذا لم ينتفع به الصائم فالذنب آت من قبله . فالمريض الذى يوصف له نوعان من الأدوية ويلزم بتعاطيهما فى وقت واحد فيتناول أحدهما فقط ولم يتم شفاؤه ، فالتبعة عليه ، وليس الذنب على طبيبه الذى وصف له العلاج .

فالصوم رياضة نفسية لايمارى فى ذلك إلا من يجحد المحسوس وينكر المشاهد .

وليس فى الصيام من ضرر إلا على المريض والمسافر والحائض والنفساء ، والحامل والمرضع إذا خافتا على ولديهما الهلاك . وقد حرم الله سبحانه الصوم على الحائض والنفساء ، بسبب الدم الخارج منهما . فإنه يضعف صحتهما ، فيحتاجان إلى الغذاء لتعويض ذلك ، ورخص للباقين ، وجعل الأمر موكولا إليهم . فمن رأى فى نفسه قوة على الصوم ولا ضرر ، صام ، وإن رأى ضعفاً أفطر ، وإن خشى زيادة المرض أو الهلاك ألزم بالإفطار . والصوم على العموم مفيد لغير هؤلاء صحياً . أثبت ذلك الأطباء حتى من غير المسلمين .

ثم هو عبادة وامتثال لأمر الله سبحانه . والمشقة الحاصلة من الصوم ليست بشىء فى جانب رضا الله سبحانه ، طمعاً فى المثوبة والزلفى والأجر العظيم .

وقد لاتتجلى فائدة الصوم فى أن يمتنع المرء عن بعض الأطعمة ويتناول البعض الآخر كما عليه بعض الديانات ، إنما تظهر فائدة الصيام فى الامتناع الكلى عن تناول أى شىء طول النهار .

وإلا فما الفائدة فى ترك ذى الروح وأكل البقول والخضر ! وإن كثيراً من الناس لاتساعدهم حالهم المعيشية على أكل مافيه الروح وهم لا يشعرون أنهم فقدوا شيئاً مُهمًّا .

فالحكمة جلية واضحة فى التشريع الإسلامى الحكيم .

وارجع إلى كتب الفقه لتعلم أحكام الصيام .

الزكاة

المال محبوب النفس ، يظل المرء حياته يجمعه ، لا يرضيه القليل ، ولا يقنعه الكثير . والمال نعمة من نعم الله العظيمة ؛ به يحفظ الإنسان كرامته ، ويسترعورته . وكل نعمة من النعم لها شكر خاص ، إن قام العبد به أمده الله برحمته ، وزاده من فضله : « لئن شكرتم لأزيدنكم ، ولئن كفرتم إن عذابي لشديد » .

وشكر نعمة المال إنما يكون بالإنفاق منه فى وجوه البر ، واستعماله فيما يرضى الله ويباعد من نقمته . وقد جعل الله فى الأموال جزءاً معلوماً للفقراء والمساكين وسماه زكاة ؛ تؤخذ من أرباب الأموال وترد إلى ذوى الحاجة والمسكنة . فمن أخرجه طيبة به نفسه فقد قام بشكر الله ، ومن بخل به على مستحقيه استحق المقت والغضب الشديد . وكيف يبخل الإنسان بمال رُزقه من فضل الله ، ولو شاء أن يسلبه إياه ويجعله من الفقراء المحتاجين لفعل ! . بل هذا المال عما قليل سيفارقه المرء لورثته يتنعمون بخيره ، ويصلى هو السعير بسببه ، ويتمثل له حية تنهش جسمه ، وتطوق عنقه ، وتقول له فى تهكم وسخرية : أنا مالك ، أنا كنزك ! فى الحديث « من آتاه الله مالا فلم يؤد زكاته مُثل له يوم القيامة شجاعا أقرع له زبيبتان يطوقه يوم القيامه ، ثم يأخذ بلهزمتيه — يعنى شدقيه — ثم يقول : أنا مالك ، أنا كنزك ! » ثم تلا النبى

صلى الله عليه وسلم قوله تعالى : « ولا تحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم ، بل هو شر لهم ؛ سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة » .

ولا ريب أن هؤلاء الذين لا يخرجون زكاة أموالهم ظالمون لأنفسهم وللفقراء ، بل هم بمنعهم الزكاة أفسدوا على المساكين دينهم ، وملأوا قلوبهم بالحسد والحقد والبغضاء ، فمن أين يأكل الفقير ويقضى حاجة من يعوله إن منعته حقه الذى جعله الله له فى ماله !.

لاشك أنه يتربص بك السوء ، ويعيث فى الأرض فساداً ، فيسلب راحة الأغنياء ، ويكون سببا فى اضطراب الأمن والإخلال بالنظام .

فى إخراج الزكاة وقاية للأموال من عبث العابثين . وفى الحديث « حصنوا أموالكم بالزكاة ، وداووا مرضاكم بالصدقة » .

فالزكاة التى شرعها الإسلام هى دواء المجتمع ، وطب النفوس ؛ بها يطهر المرء من رزيلة الشح والبخل « ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » .

ولها فوق ذلك الأثر الحميد فى تخفيف ويلات المحتاجين ، ودفع شرور المعتدين ؛ ولذا أوجب الله أخذها بالقوة إن امتنع المسلمون عن دفعها اختياراً « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها » .

إن الإسلام وضع نظاما للزكاة لو سار الناس عليه لانقطع دابر

الاشتراكية المتطرفة ، والشيوعية المسرفة . وفى ذلك راحة الحكام ، وصرف مجهوداتهم إلى مايعود على الأمم بالفلاح ورغد العيش .

ولم يطلب الإسلام من أصحاب الأموال مايثقل كاهلهم ، بل جعل المقدار المطلوب قليلا لايؤثر فيما عندهم . فالنقود التى حال عليها الحول زكاتها ٢,٥٪ والحبوب إذا حصدناها نخرج عنها نصف العشر إن كانت تسقى بالآلات كالساقية ووابورات الرى ، ونخرج عنها العشر إن كانت تسقى بدون آلات . ومن أراد تفصيلا أوفى فليرجع إلى كتب الفقه ، وأختم لك باب الزكاة بقول الله تعالى فى الحديث القدسى « ياعبدى أنفق أنفق عليك » .

الحـــج

هو مؤتمر المسلمين العام ؛ فيه يجتمعون من مشارق الأرض ومغاربها فى صعيد واحد ، يعبدون إلهاً واحداً ، قلوبهم متحدة ، وأرواحهم مؤتلفة . فى الحج يتذكر المسلمون الرابطة الدينية ، وقوة الوحدة الإسلامية . فى الحج يتذكر المرء يوم حشر الأجسام ، واشتداد الزحام ، والعرض على الملك العلام « يوم لاتملك نفس لنفس شيئاً ، والأمر يومئذ لله » .

وللحج فوائد جمة : منها تصفية النفس ، وتعويدها البذل والإنفاق ، وتحمل المشاق وترك الزينة والخيلاء . ومنها شعور المرء بمساواته لغيره ، فلا ملك ولا مملوك ، ولا غنى ولا فقير ، بل الكل هناك سواء . ومنها اجتماع المسلمين الذين أتوا من جميع بقاء الأرض مهللين

مكبرين ، للتشاور والتعاون فيما يعود على الإسلام والمسلمين بالخير العام والنفع العظيم . ومنها إظهار الامتثال والخشوع والخضوع لله رب العالمين .

ومنها التنقل فى البلاد لمعرفة أحوالها وعادات سكانها ، وزيارة مهبط الرسل الكرام ، والتمتع بمشاهدة بيت الله الحرام .

وقد أوجب الله الحج فى العمر مرة على القادر المستطيع ، فقال سبحانه وتعالى « ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا ، ومن كفر فإن الله غنى عن العالمين » .

وقال النبى عليه السلام « من ملك زاداً وراحلة تبلغه إلى بيت الله الحرام فلم يحج فلا عليه أن يموت يهودياً أو نصرانياً » .

وفى رواية « من لم يمنعه من ذلك حاجة ظاهرة أو سلطان جائر أو مرض حابس فمات ولم يحج فليمت إن شاء يهودياً وإن شاء نصرانيا» . وفى رواية «الحج مرة واحدة فى العمر فمن زادفهو تطوع» .

وأقول لهؤلاء المترفين الذين يسافرون كل عام إلى البلاد الأجنبية ترويحا لنفوسهم : إن فى حج بيت الله أعظم راحة للنفس ، بل فى ذلك تكفير لذنوبكم ومرضاة لربكم . فنى الحديث « الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة » .

وفى حديث آخر « من حج هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق رجع كيومَ ولدته أمه » .

ومن وفقه الله لحج بيت الله فليوطن نفسه على زيارة قبر النبى صلى الله عليه وسلم ؛ فإن زيارته قربة يزداد بها المؤمن إيمانا ، وتملأ

قلبه نوراً ، وتحفزه على الاستمساك بهدى الرسول الأكرم صلى الله عليه وسلم والعمل بسنته .

هذا وقد أصبحت سبل الحج سهلة ميسرة ، والطريق آمنا ، فلا عذر للقادرين فى التخلف عن حج بيت الله الحرام ، وزيارة قبر النبى عليه الصلاة والسلام .

ومن دعاء النبى صلى الله عليه وسلم بعرفه :

« اللهم إنك تسمع كلامى ، وترى مكانى ، وتعلم سرى وعلانيتى لايخفى عليك شىء من أمرى. أنا البائس الفقير ، المستغيث المستجير ، والوجل المشفق المقر المعترف بذنوبى . أسألك مسألة المسكين ، وأبتهل إليك ابتهال المذنب الذليل ، وأدعوك دعاء الخائف الضرير ، من خضعت لك رقبته ، وفاضت لك عيناه ، وذل جسده ، ورغم أنفه لك ، اللهم لاتجعلنى بدعائك رب شقيا ، وكن بى رءوفا رحيما ، ياخير المسئولين ، وياخير المعطين » .

ومن أراد معرفة مناسك الحج ، فليرجع إلى الكتب المؤلفة فى ذلك . وفقنا الله لحج بيته وزيارة قبر نبيه صلى الله عليه وسلم .

تلك لمحة قصيرة من مزايا التكليفات العبادية فى الشريعة الإسلامية وهى كما ترى معقولة المعنى ، مفهومة المقصد . ولو بحث المنصفون من أهل الديانات الأخرى فى إرشادات الإسلام وشرائعه لعلموا علم اليقين أنه الدين العالمى الخالد الذى كفل سعادة البشر فى الدنيا والآخرة .

أعز الناس وأغناهم وأقواهم

فى الحديث الآتى بيان الأعمال التى تكتسب بها العزة والغنى والقوة ، وفيه بيان الصفات التى تجعل المرء مرذولا شريراً مبغوضاً من الله والناس . والحديث هو :

قال محمد بن كعب القرظى : دخلت على عمر بن عبدالعزيز رضى الله عنه فى مرضه الذى مات فيه ، فجعلت أحدُّ النظر إليه فقال لى : يابن كعب : مالك تحد النظر إلىّ ؟ قلت : لما نحل من جسمك ، وتغير من لونك ! قال : فكيف لو رأيتنى بعد ثلاثة فى قبرى وقد سالت حدقتاى على وجنتى وابتدر فمى وأنفى صديداً ودوداً ، إذاً كنت أشد نكرة ! . أعِدْ على حديثاً كنت حدثتنيه عن ابن عباس . قلت : سمعت ابن عباس يقول : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إن لكل شىء شرفاً ، وإن أشرف المجالس ما استقبل به القبلة ، ومن أحب أن يكون أعز الناس فليتق الله ، ومن أحب أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله ومن أحب أن يكون أغنى الناس فليكن بما فى يد الله أوثق منه بما فى يده . ثم قال : ألا أنبئكم بشرار الناس ؟ قالوا : بلى يارسول الله . قال : من نزل وحده ، ومنع رفده (معونته) ، وجلد عبده . ثم قال : ألا أنبئكم بشر من ذلك ؟ قالوا : بلى يارسول الله . قال : من لايقيل عثرة ،

ولا يقبل معذرة . ثم قال : ألا أنبئكم بشر من ذلك ؟ قالوا : بلى يارسول الله. قال: من لايرجى خيره ولايؤمن شره . ثم قال : ألا أنبئكم بشر من ذلك ؟ قالوا : بلى يارسول الله . قال : من يبغض الناس ويبغضونه » .

فحاول يا أخى أن تكون عزيزاً بتقوى الله ، قوياً باعتمادك عليه ، غنياً بثقتك فى غناه . فالتقوى تحملك على تلمس أسباب العزة بالسعى فى الأرض لاكتساب الرزق وتحصيل الثروة بالطرق التى شرعها رب العالمين .

قيل : مكتوب فى صخرة «كلْ من كد يمينك ، وعرق جبينك ، فإن ضعف يقينك ، فاسأل المولى يعينك » .

وتأمل أرشدك الله صفات الأشرار فى الحديث المذكور وتجنبها، وكن خيراً يفعل الخير للناس ويحسن إليهم ، ويرحم صغيرهم ، ويوقر كبيرهم ؛ يعطف على فقيرهم ويعين بجاهه من لا جاه له . بذلك تكسب ثناء الناس ، ورضا الله . وقديماً قيل : ألسنة الخلق أقلام الحق .

القسم الثالث

أسس لنظام الجمعية الإنسانية وارتباط أفراد الناس بعضهم ببعض . والإسلام — رفع الله لواءه — أتى فى هذا الباب بما ليس وراءه أمل لآمل ، ولا زيادة لمسترشد ، فقد كفل سعادة البشر بشرائعه السامية ، وقوانينه العادلة .

تأمل مافيه من آداب وأخلاق ، وما شرع من نظم اقتصادية وسياسية ؛ بل كم ترى فيه من أمر بالإحسان حتى إلى أعدائه : « لاينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم ، إن الله يحب المقسطين » .

يزعم بعض أعداء الإسلام أن تعاليمه لاتحقق السعادة المنشودة من الحياة ؛ وقد تجنوا على الإسلام بهذه الدعوة المفتراة ؛ فإن الإسلام لم يأت بما يصادم العقول السليمة ، ولم يدع إلى الخمول والكسل وإهمال شأن هذه الحياة ؛ وليس فى شريعة الاسلام إلا الحث على الجد والنشاط ، وتحصيل السعادة الحقة ، والتمتع بمباهج الحياة ، واقتطاف ثمارها .

وإلى المنصفين بيان ذلك ، وسيكون رائدى فى ذكر إرشادات الاسلام فى هذا . . كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم .

أجمع علماء الشرق والغرب على أن أهم عوامل رقى الأمم وفلاحها ثلاثة عوامل :

(١) عامل اقتصادى . (٢) عامل سياسى . (٣) عامل خلق .

وأريد أن أبين بإيجاز أن هذه العوامل الثلاثة متحققة فى الاسلام (وقد شفى الغليل فى بيان هذه العوامل وتحققها فى الشريعة المحمدية المرحوم الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده فى كثير من مؤلفاته) وقد أقتبس بعض عباراته فى هذا . وأقول : لامغالاة إن قررنا أن الاسلام جاء فى هذا الباب بما يدهش العقول ، ويلجىء الباحثين أن يقولوا : هذه إرشادات ونظم جاء بها كتاب لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد .

العامل الأول الاقتصاد

ويشمل :

(ا) العمل . (ب) حسن الصلة بين الأفراد .

(ح) القصد والتوسط فى مرافق الحياة .

(ا) العمل :

بلوغ الأمة درجة الكمال الاقتصادى لايكون إلا بكثرة الأيدى العاملة ونشاط الأفراد ، بحيث يكون لكل فرد عمل يزاوله ويتوفر على إتقانه . فإذا كسلت أفراد الأمة عن العمل ، وفشت بينهم البطالة والخمول ، وأصبحت بضاعتهم كلاماً بدون فعل ؛ فهذه الأمة على شرف الزوال ، بل بشرها بالاستعباد والذل المقيم .

ومن يتأمل تعليمات الإسلام يرى أنها حضت على العمل حضاً

شديداً ، ورغبت فيه بأساليب متنوعة جذابة، فمرة تبين لنا إرشادات الإسلام أن الله سبحانه وتعالى جعل الأرض ممهدة سهلة ذلولا نقدر على استثمارها والانتفاع بخيراتها ، ويزيد الإسلام على هذا أمرنا بالسعى فى أطرافها لاستخراج كنوزها والتمتع بلذاتها فيقول «هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه، وإليه النشور » . ويقول « فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله » .

لا أدرى لم ألصقت تهمة الخمول والتواكل للإسلام مع تحريضه الشديد على السعى والجد لنيل السعادة والعزة ؟ وهذا نبى الإسلام صلى الله عليه وسلم يرغب فى السعى والعمل لطلب الرزق بعبارات جذابة ملهبة ، فيقول « ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده ، وإن نبى الله داود — مع ما أوتيه من الملك — كان يأكل من عمل يده » . ويقول صلوات الله عليه « لأن يحتطب أحدكم حزمة على ظهره خير من أن يسأل أحداً فيعطيه أو يمنعه » .

بل من إرشادات الإسلام « إن من الذنوب ذنوباً لا يكفرها صلاة ولا صوم ولا زكاة ولا حج، وإنما يكفرها الهم فى طلب المعيشة».

فأين دعوى التواكل فى الإسلام مع هذه الإرشادات السامية النبيلة ؟ أقول : قد جاءنا ذلك من حيث نمنا واستيقظ غيرنا ، وكسلنا وجد سوانا ، فلا بالأوائل من أبناء ديننا الذين ضربوا فى الحياة بسهم عظيم وكانوا كالشمس المشرقة على العالم فى سماء الكون

حتى أدهشوا الأمم بمخترعاتهم وأعمالهم ، اقتدينا ، ولا بتعاليم ديننا عملنا ، بيد أنى أرى بوادر تبشر بالخير ، فعسى أن يثوب المسلمون إلى رشدهم ، ويهبوا من رقادهم ، وينافسوا الأمم فى مضمار العمل .

(ب) حسن الصلة بين الأفراد :

حسن الصلة بين أفراد الأمة برهان كمال رقيها الاقتصادى ؛ فمتى قويت تلك الصلة سارت فى سبيل السعادة بقدم ثابتة ، وبلغت ذروة المجد وأوج الفلاح .

فحسن الصلة بين أفراد الأمة سر نجاحها ، ووفرة الثقة بينهم أساس قوتها وعزها .

والإسلام يرغب فى هذا بعبارات جذابة تأخذ بمجامع القلوب فتراه يقول : « والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض » ، ويقول وصفا للرسول وأصحابه « محمد رسول الله ، والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم » .

ويقول النبى صلى الله عليه وسلم : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً » . ويقول « من غشنا فليس منا » فاعتبر الغاش ليس من المؤمنين ، لأن الغش لا يستقيم به حال أمة ، ولا تسعد جماعة فشا بينها هذا النوع المزرى بالكرامة المضيع للثقة .

(ح) التوسط فى مرافق الحياة :

لا تنال أمة السعادة ، ولا تبلغ درجة الكمال الاقتصادى إذا كان أفرادها مسرفين فى لذاتهم وشواتهم ، ينفقون بالشمال ما تجمعه

اليمين . كذلك لا تكون لها عزة ، ولا فلاح إذا كان أفرادها أشحة بالمال حريصين عليه ، لا يجودون ببعض منه فيما يعود على أمتهم وبلادهم بالرفاهية ، وعلى الإنسانية بالمنفعة ؛ إنما تتحقق السعادة بالتوسط فى ذلك ، إذ كلا طرفى قصد الأمور ذميم ،

وقد أبان الدين الإسلامى ذلك أيما بيان، ونفر من الإفراط وحذر من التفريط ، ودعا إلى الاعتدال بأسلوب تخشع له البصائر ، وتنجذب إليه القلوب ، فقال « ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ، ولا تبسطها كل البسط ، فتقعد ملوماً محسورا » . وزاد على ذلك أن جعل المبذرين إخوان الشياطين ، وكان الشيطان لربه كفورا ».

وقد أثنى الله تعالى فى كتابه الكريم على عباد الرحمن بأنهم «إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما » .

ولما أراد سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه أن يتصدق بثلثى ماله ، استأذن الرسول صلى الله عليه وسلم فى ذلك فقال له : لا . فاستأذن أن يتصدق بالشطر « النصف » فقال له الرسول : لا . فقال سعد: فالثلث يارسول الله؟ قال: الثلث والثلث كثير ، أو كبير وإنك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس. وفى الأثر : « ما عال من اقتصد .

تلك بعض إرشادات الإسلام فى باب الاقتصاد ، وهى كما يرى المنصف قيمة سامية ، لو سار المسلمون عليها لكان لهم شأن غير ما هم فيه الآن .

ونكتفى بهذه اللمحة فى باب الاقتصاد ، لنذكر لك كلمة عن العامل الثانى من عوامل رقى الأمم :

العامل الثانى

سياسة الامة

سياسة الأمم ضربان : سياسة داخلية ، وأخرى خارجية . وتعود الأولى إلى وضع الأنظمة وسن القوانين النافعة التى تحسن الصلات بين الناس فى معاملاتهم ، وتنظيم بناء الأسر ، وربط العائلات بعضها ببعض ، وبيان مالكل فرد من تركة غيره ، وتولية الحكام الذين يقومون بتنفيذ القوانين ، ونشر الأمن بين الناس ، وما إلى هذا مما يعود على الأمة بالتقدم والرفاهية .

وترجع السياسة الخارجية إلى علاقة الأمة بغيرها من الأمم الأخرى ، وذلك إما أن يكون عداء وخصاماً ، أومودة وسلاماً . ولكل اعتبار .

هذا وإن اضطراب الأمة فى داخليتها دليل فشلها ، ونذير استعبادها ، وشارة ضعفها ومحوها من سجل الأمم . ولا عصمة لأمة من الوقوع فى مهالك الردى والفوضى ، إلا بوضع قواعد حكيمة ، تقيها شر الاضطراب ، كوضع الأنظمة للأحوال الشخصية ، والمواريث ، وتنظيم عملية القرض ، والاقتصاص ممن يجاوزون

حدود الآداب، وما إلى ذلك مما لابد منه لحياة أمة فى رغد وطمأنينة. وشرائع الإسلام فى هذا وافية كافية .

اقرأ إن شئت آية المواريث ، وتأمل وجه المصلحة فى شرع العليم الخبير « يوصيكم الله فى أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين ؛ فإن كن نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك ، وإن كانت واحدة فلها النصف ، ولأبويه لكل واحد منهما السدس مما ترك إن كان له ولد ، فإن لم يكن له ولد وورثه أبواه فلأمه الثلث ، فإن كان له إخوة فلأمه السدس، من بعد وصية يوصى بها أو دين ، آباؤكم وأبناؤكم ، لاتدرون أيهم أقرب لكم نفعاً ، فريضة من الله ، إن الله كان عليما حكيما » إلى آخر آيات المواريث .

وانظر شرع الاسلام وحكمه على الذين يعيثون فى الأرض فساداً ، ويخلون بالأمن ، ويقطعون الطرق ، ويسلبون راحة الناس « إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا ، أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف ، أو ينفوا من الأرض ، ذلك لهم خزى فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب عظيم » .

وجعل الرسول صلى الله عليه وسلم إسناد الحكومة والقضاء والولاية لمن ليس لها بأهل ، علامة على قرب الفناء والزوال ، فقال صلى الله عليه وسلم : « إذا وُسِّدَ الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة » .

كذا ترى الإسلام وضع أحكم نظام للقصاص « يأيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص فى القتلى : الحر بالحر ، والعبد بالعبد ،

والأنثى بالأنثى ، فمن عفى له من أخيه شيء فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان ، ذلك تخفيف من ربكم ورحمة» . وفى آية أخرى يقول الله عز وجل : « وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس ، والعين بالعين ، والأنف بالأنف ، والأذن بالأذن ، والسن بالسن ، والجروح قصاص» .

وانظر إلى نظامه فى العمل على حفظ الديون « يأيها الذين آمنوا إذ تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه ، وليكتب بينكم كاتب بالعدل ، ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله ، فليكتب وليملل الذى عليه الحق ، وليتق الله ربه ولا يبخس منه شيئاً » .

ولما كان من الناس من ضعفت ذاكرته ، كما أن منهم من فسدت ذمته ، جعل أمر إملاء ما على هؤلاء من الديون إلى المشرفين على مصالحهم ، فقال : « فإن كان الذى عليه الحق سفيهاً أو ضعيفاً أو لا يستطيع أن يمل هو فليملل وليه بالعدل » .

ثم طلب لهذا العقد بل لجميع العقود ما يوثقها بالإشهاد عليها حتى لا ينكر مدين ما عليه لدائنه ، فقال : « واستشهدوا شهيدين من رجالكم ، فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء » . وحذر الشهود وأنذرهم عاقبة كتمان الشهادة ، وتوعدهم بأليم العقاب إن كتموها ، فقال : « ولا تكتموا الشهادة ، ومن يكتمها فإنه آثم قلبه ، والله بما تعملون عليم » .

ونظر إلى الأحوط فى حال السفر ، فشرط أن يدفع المدين رهناً لدائنه إلا أن يكون بينهما حسن ثقة ، فقال : « وإن كنتم على

سفر ولم تجدوا كاتباً فرهان مقبوضة ، فإن أمن بعضكم بعضاً فليؤد الذى اؤتمن أمانته ، وليتق الله ربه » .

وقال آمراً الحكام بالعدل فى الأحكام : « وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ، إن الله نعما يعظكم به ، إن الله كان سميعاً بصيراً » .

وكذا تراه نهى عن الاستبداد وتحكّم الأفراد فى الجماعة ، فأمر بالمشاورة ومدح عليها ، فقال : « وشاورهم فى الأمر » ، « وأمرُهم شُورى بينهم » .

فأنت ترى — أرشدك الله — أن الاسلام لم يترك شيئاً مما ينظم سياسة الأمة الداخلية إلا وضع له الأنظمة المتقنة المحكمة . ومالم يذكر بالعبارة الصريحة ، يستنبط من أصوله الرشيدة وقواعده العامة ، حتى صح أن يقول : « مافرطنا فى الكتاب من شىء » . ولذا يعجب العقلاء — وهذا قانون الاسلام — من استبداله بقانون أجنبى من وضع البشر يحكم به فى أمة دينها الاسلام ! .

وأما سياسة الأمة الخارجية ، فقد أسلفنا أنها إما أن تكون عداء وخصاماً ، أو مودة وسلاما . فنى الحالة الأولى يلزم أن تعد لعدوها ماتقدر عليه من آلات الجهاد ، كتجهيز الجيوش ، واختيار القواد ، وإذكاء الحمية فى نفوس الجنود حتى يصير الموت أعذب لديهم من الحياة ، فيصمدوا للأعـــداء ، ويستبسلوا فى الدفاع . والحرب فن من الفنون له أنظمة وقوانين ، وقد أسست الشريعة المحمدية قوانينه ، وبينت كيف يكون الاستعداد لحماية الأوطان ،

يرشد إلى هذا قوله تعالى : « وأعدوا لهم مااستطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدوالله وعدوكم » فقوله سبحانه : من قوة، شامل لكل آلات الحروب من سيوف وبنادق ، ومدافع وطيارات فى الهواء ، وغواصات فى الماء ، ومواد كيماوية وغازية ، وسائر آلات الدفاع والحرب .

وانظر إلى الاسلام كيف يحث القائد على تحريض جنده على القتال والجندى بالتفانى فيه ، فيقول :

« يأيها النبى حرض المؤمنين على القتال ، إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين ، وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفا من الذين كفروا ، بأنهم قوم لايفقهون » .

ويقول : « ولاتهنوا فى ابتغاء القوم ، إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون ، وترجون من الله مالا يَرجون » .

ويبين أن النصر ليس بالكثرة ، إنما يكون بالثبات والصبر على مشاق القتال ، فيقول : « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله، والله مع الصابرين » .

وتراه ينهى عن الفرار ويبين ألا فائدة منه إلا العذاب فى الآخرة والخزى فى الدنيا ، فيقول : « يأيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفا فلا تولُّوهم الأدبار ، ومن يولِّهم يومئذ دبره إلا متحرفا لقتال أو متحيزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم ، وبئس المصير » . ويقول : « قل لن ينفعكم الفرار

إن فررتم من الموت أو القتل وإذاً لاتمتعون إلا قليلا » . ويعين مواضع الطعن فيقول : « فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان » . ويحض على تعديل صفوف المجاهدين وسد الفرج بين الجنود حتى لا تكون فرصة للعدو ، فيقول : « إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص » .

هذه بعض إرشادات الإسلام فى حال الخصام والعداء .

واليك طرفاً منها فى حال السلم والصفاء ، ولا أجد ما أقدمه برهاناً على أن الإسلام دين سلم ومودة لكل الأمم: خيراً من قوله تعالى : « وإن جنحوا للسلم فاجنح لها ، وتوكل على الله ، إنه هو السميع العليم» .

ثم إنه تارة يكون بين أمة وأخرى عهد بترك القتال لأمد محدود أو مرسل ، أولا يكون ، بأن لم يكن سبق بينهما نزال ؛ وقد نبه الإسلام إلى وجوب حفظ العهود وعدم نقضها ، إلا إذا بدت خيانة فقال : « إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئاً ولم يظاهروا عليكم أحداً فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم ، إن الله يحب المتقين » ، وقال : « وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا فى دينكم فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون » ، وقال : « وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء ، إن الله لايحب الخائنين» ،وقال «فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم ،إن الله يحب المتقين» ، وقال فى أهل الذمة : « لهم ما لنا وعليهم ما علينا» ، و « من آذى ذمياً فليس منا » .

هذا قليل من كثير مما يختص بسياسة الأمم الداخلية والخارجية.
وقد تركنا الكلام على مشروعية القتال فى الإسلام ميلا إلى الإيجاز ، وطالب الحق يقنعه القليل ، والمتعنت لا ينفعه الكثير .

العامل الثالث فى رقى الامم

الأخـــلاق

بقدر ما تحوز الأمة من الكمال الخلقى يكون رقيها وفلاحها . فإذا سمت الأخلاق فى أمة من الأمم سعد أفرادها وحسن حالها ، وبزت غيرها فى ميادين الحياة . وبالعكس : إذا تدهورت أخلاقها وعبث أفرادها بالفضيلة ، ومرنوا على الشر ، وصارت الكرامة بينهم نسياً منسياً ، دل ذلك على زوال سلطان هذه الأمة وفناء أفرادها ، وسقوط هيبتها ، وقرب انتهائها وزوالها من صفحة الوجود . وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا
والأخلاق شجرة لها أصول أربعة ترتكز عليها ، وهى :
(١) الشجاعة (٢) العفة (٣) الطعن (٤) الحكمة .

الشجاعة

الشجاعة ضربان : حسية ، ونفسية ، وكلاهما من الضروريات لعيش الأمم فى رفاهية وهناءة . فبالأولى يكون الذود عن الأوطان وحماية الأعراض والأموال ، وبقدر قوة فتيان الأمة يكون عزها

وهيبتها ، وبقدر ضعفهم يكون ذلها واستعبادها . والمشاهدة أكبر برهان وأعظم حجة .

والناظر فى الشريعة الإسلامية يرى أن الإسلام حث على تحصيل هذه الشجاعة ورغب فيها بأساليب متنوعة تذكى فى القلوب الحمية ، وتدفع النفوس إلى خوض غمار الحرب راضية مطمئنة . اقرأ إن شئت قول الله تعالى « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة، يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويُقتلون، وعداً عليه حقاً فى التوراة والإنجيل والقرآن ، ومن أوفى بعهده من الله ، فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به ، وذلك هو الفوز العظيم » . فأى حث على تحصيل الشجاعة أقوى من هذا .

ويقول الله فى آية أخرى « فليقاتل فى سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ، ومن يقاتل فى سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجراً عظيما » .

بل ترى الإسلام يبين أن الموت لاحق بكل إنسان ولو تحصن بالقلاع ، فيقول « أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة » . وهكذا تراه يدفع إلى المغامرة بالنفوس وبيعها فى سبيل الله ، ويذكر أن من كتب عليه القتل لابد واقع به لا يحول دون تنفيذه التخلف عن صفوف المجاهدين « قل لو كنتم فى بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم » .

بهذه التعاليم السامية التى عمل بها السابقون الأولون الذين

أشربوا حب الإيمان فى قلوبهم ، انتصر المسلمون على أعدائهم ، وقهروا القياصرة ، وهزموا الأكاسرة ، وفتحوا من البلاد فى قرن واحد ما لم تستطع أقوى الأمم أن تفتحه فى ثمانية قرون ، مع قلة عددهم ، وضآلة عددهم ، وكثرة أعدائهم ، وقوة استعدادهم .

ومن يتأمل قصة ذلك الصحابى (عمير بن الحمام) حين سمع الرسول صلى الله عليه وسلم وهو يحض على الجهاد قائلا « والذى نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً مقبلا غير مدبر إلا أدخله الله الجنة ! » ، وكان بيد ذلك الصحابى تمرات يأكلها ، فألقى بها وقال : بخ بخ ! مابينى وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلنى هؤلاء ! ثم قذف بالتمرات من يده وأخذ سيفه وقاتل حتى قتل .

من يتأمل هذا يعلم ما كانت تفعله تلك الإرشادات الإلهية فى إذكاء الحمية وإثارة بواعث الشجاعة فى نفوس المؤمنين الصادقين .

وأما الشجاعة المعنوية فما نعلم ديناً أتى بمثل ما جاء به الإسلام فى الحث على اكتسابها والتحلى بها ؛ من ذلك أنه أوجب تخصيص طائفة من المسلمين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر لا يخافون فى الله لومة لائم « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، وأولئك هم المفلحون » .

وأخبر أن فضل هذه الأمة على سائر الأمم إنما هو بقيامها بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر « كنتم خير أمة أخرجت للناس ، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » ،

وقال وصفاً للمؤمنين «والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر».

بل إن الإسلام أوجب منع المنكر بالقوة إن كان ذلك بالاستطاعة، وإلا فباللسان، وإلا فبالقلب. وعد عدم إنكار المنكر بأحد هذه الثلاث خروجاً من الدين، وذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن يستطع فبقلبه». وفى رواية أخرى زيادة «ليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل». ومما ذكر نعلم أن إنكار المنكر أمر محتوم على المسلمين القيام به، لا يفرقون فيه بين أمير وحقير، وحاكم ومحكوم.

وإنى أقول والأسى يملأ الفؤاد: لو أن عندنا معشر رجال الدين من الثقة بالله ما يدفعنا إلى إنكار المنكر على الكبير والصغير والعظيم والحقير، لكان لنا وللدين فى هذا البلد شأن آخر. ولكن فترت الهمم، ووهنت العزائم، حتى أصبح المنكر معروفا، والمعروف منكراً، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

العفة

هى الأصل الثانى من أصول شجرة الأخلاق.

والعفة سر النجاح ورأس الفلاح، ونور الهداية ونبراس الفضيلة. ولو لم يكن من آثارها الجميلة سوى البعد عن جريمة الزنى

لكنى ذلك فى التمسك بها والتعلق بأذيالها. والكلام على العفة يحتاج إلى سفر مستقل ، كيف لا وهى سر أمانة التاجر مع عميله، والخادم مع مخدومه ، والوزير مع مليكه ، وبها ترد الودائع ، وتحفظ الأعراض ، وتمنع الجرائم ، وخاصة جريمة الرشوة ، وبها يزداد المرء ثقة بالله وغنى عن الناس ، والعفة لب الشريعة الاسلامية ، ونور الهداية المحمدية .

وأفضل العفاف كما يقول النبى صلى الله عليه وسلم « عفاف البطن والفرج » يعنى عن الحرام .

ومن يتأمل ماقصه الله على البشر من شأن يوسف عليه السلام مع امرأة العزيز ، وكيف كانت عفته سبباً فى جعله على خزائن الأرض وزيراً لمالية مصر يصرفها كيف يشاء ؛ من يتأمل هذا يرى أن الإسلام رغب فى العفة أيما ترغيب .

العـــدل

وهو الأصل الثالث من أصول الأخلاق .

والعدل نظام الوجود ، لا يستقيم بدونه حال فرد ولا جماعة ، فلا بدع أن سماه بعض الحكماء ركن الوجود الأقوى ، كما أطلق عليه بعضهم « المحور الذى يدور عليه الكون » .

والعدل قسمان : عدل الشخص مع نفسه ، وعدله مع غيره . فعدله مع نفسه يكون بوقايتها من الوقوع فى الموبقات والبعد عن

المحرمات ، فلا ينقصها حقها من النعيم بارتكاب الشرور والآثام . فهؤلاء العصاة الذين يخالفون أوامر ربهم ويُغضبونه بفعل ما يكره قد ظلموا أنفسهم ، وما ظلمهم الله .

وعدل الشخص مع غيره يتحقق بإعطاء كل ذى حق حقه . فإن كان حاكما عدل فيمن ولاه الله عليهم ، وإن كان رب أسرة سوى بين أفراد أسرته فى المعاملة ، وهكذا . . .

والعدل فى الذروة والسنام من التعليمات الاسلامية ، فقد قال علماء الاسلام : الملك يبقى مع الكفر ولا يبقى مع الظلم . ومعناه الملك يدوم مع الكفر والعدل ، ولا يدوم مع الظلم والإيمان . ويؤيد هذا قول الله تعالى « وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون» والمراد كما قال غير واحد من المفسرين : إن الله لا يهلك أهل قرية بسبب كفر أهلها ماداموا عادلين . وتسمية الكفر ظلماً هو الذى عليه قوله تعالى « إن الشرك لظلم عظيم » .

وقد أمر الله بالعدل ونهى عن الظلم فقال سبحانه : « إن الله يأمر بالعدل والاحسان وإيتاء ذى القربى ، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ، يعظكم لعلكم تذكرون » .

ونهى سبحانه أن يكون البغض والشقاق داعيين لعدم العدل فقال جل شأنه « ولا يجرمنكم شنآنُ قوم على أن لا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى » .

ورغب النبي صلى الله عليه وسلم فى العدل بقوله : « سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله : إمام عادل ، وشاب نشأ فى عبادة الله ، ورجل قلبه معلق بالمساجد ، ورجلان تحابا فى الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه ، ورجل دعته امرأه ذات منصب وجمال فقال إنى أخاف الله ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه ، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه » .

وقال صلوات الله عليه « ثلاثة لا ترد دعوتهم : الصائم حتى يفطر ، والإمام العادل . ودعوة المظلوم يرفعها الله فوق الغمام ، ويفتح لها أبواب السماء ، ويقول الرب : وعزتى لأنصرنك ولو بعد حين » .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يوم من إمام عادل ، أفضل من عبادة ستين سنة ، وحد يقام فى الأرض بحقه أزكى من مطر أربعين صباحا » .

وفى حديث آخر « أحب الناس إلى الله يوم القيامة وأدناهم منه مجلساً : إمام عادل ، وأبغض الناس إلى الله تعالى وأبعدهم منه مجلساً : إمام جائر » .

وكما رغب فى العدل حذر من الظلم وبين أنه ظلمات يوم القيامة ؛ ففى الحديث « ما من عبد يسترعيه الله عز وجل رعية يموت يوم يموت وهو غاش رعيته إلا حرم الله تعالى عليه الجنة » .

وفى حديث آخر « من ولى أمة من أمتى قلت أو كثرت فلم يعدل

فيهم كبه الله على وجهه فى النار » . وفى حديث عن ابن أبى أوفى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله مع القاضى ما لم يجر، فإذا جار تخلى عنه ولزمه الشيطان » .

وإنى أذكر لك حديثاً ينم عن حالنا ، ويكاد يكون وصفاً لزماننا: روى ابن ماجه والبزار واللفظ له : « السلطان ظل الله تعالى فى الأرض، يأوى إليه كل مظلوم من عباده ؛ فإن عدل كان له الأجر وكان على الرعية الشكر ، وإن جار أو حاف أو ظلم كان عليه الوزر وعلى الرعية الصبر . وإذا جارت الولاة قحطت السماء ، وإذا منعت الزكاة هلكت المواشى ، وإذا ظهر الزنى ظهر الفقر والمسكنة، وإذا أخفرت الذمة (نقضت) أديل الكفار» (غلبوا المسلمين) .

هذه بعض تعليمات الإسلام فى الأمر بالعدل والنهى عن الظلم، لو تمسك بها الحاكم والمحكوم لسعد حالنا وكنا أعز الأمم وأرقاها والأمر لله من قبل ومن بعد .

الحكمة

هى الأصل الرابع من أصول الأخلاق . والحكمة ثمرة العلم ونتيجته : وهى عند الحكماء «معرفة حقائق الأشياء على ما هى عليه بحسب الطاقة البشرية ، وعند غيرهم « هى إصابة الصواب فى القول والعمل ».

والحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها التقطها ، لا يبالى من أى وعاء خرجت . « ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً » . وأى خير

أعظم من الهداية إلى الحق ، والصواب فى القول والعمل .

وهناك أخلاق أخرى مهمة تكاد تلحق بهذه الأصول، كالصبر، والصدق ، والصراحة ، والسماحة ، والحياء ، والمروءة ، والحلم ، وإن كانت متفرعة منها .

الصبر

ملاك الفضائل وأصلها ، به يصبح العبد حراً والذليل عزيزاً ، وبه يقوى المرء على مجالدة الحياة وعنائها ، والرزايا وضرائها . فهو عنوان الرجولة الناضجة ، وضياء الفضيلة الإنسانية . فلا عجب أن جعله الاسلام من باب الإحسان ، ورغب فيه بقوله « واصبر إن الله لا يضيع أجر المحسنين » .

ووعد الصابرين أجراً بغير تقدير « إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب ، وعده من عزائم الأمور وأمر به فقال سبحانه فى كتابه الكريم «واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور» . وأخبر رب العالمين أن الصابر معان بالنصر والتأييد من الله العزيز الحميد فقال « يأيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين » . وبين نبى الاسلام أنه نصف الايمان فقال « الإيمان نصفان : نصف صبر ، ونصف شكر » وقال « من تأنى أصاب أو كاد ، ومن عجل أخطأ أو كاد » .

والصبر سبب من أسباب تيسير الأمور كما فى حديث « واعلم أن النصر مع الصبر ، وأن الفرج مع الكرب ، وأن مع العسر يسراً »

والصبر نوعان : صبر على الطاعات ، وصبر عن المعاصي : والثانى أشقهما على النفس ، فمن رزق الصبر على طاعة الله تعالى وعن معصيته فقد حاز الفضائل أجمع ، ونال سعادة الدنيا والآخرة وكان عند الله وجيها ،

الصدق والصراحة

هما دليل الأمم إلى السعادة واكتساب المحامد ، مافشيا فى أمة إلا أنارا لها سبيل المجد والسؤدد ، وبلغا بها أوج الكمال والرفعة ؛ وبالعكس إذا انتشر فى أمة الكذب والضعف عن المجاهرة بالحق قولا أو عملا ، ضاعت الثقة بها ، ووسمت بالجبن ، وهوت إلى الحضيض الأسفل ؛ ولا قيام لها من هذه الكبوة إلا بالرجوع إلى الصراحة والصدق . وإذا أردنا أن نتعرف مكان هاتين الخلتين فى الشريعة المحمدية وجدناهما فى الذروة العليا من إرشاداتها النبيلة : أنظر إلى مدح الله لرسوله إسماعيل عليه السلام فى القرآن الكريم « واذكر فى الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد وكان رسولا نبياً ».

إن الإسلام أمر بالصدق ومدح الصادقين ، ووعدهم بإصلاح أعمالهم وغفران ذنوبهم « يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديداً ، يصلح لكم أعمالكم ، ويغفر لكم ذنوبكم ، ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيما » .

وهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يرغب فى الصدق ويبين أنه دليل إلى الجنة فيقول « إن الصدق يهدى إلى البر ، وإن البر يهدى

إلى الجنة ، وإن الكذب يهدى إلى الفجور ، وإن الفجور يهدى إلى النار » . وأخبر صلوات الله عليه أن الصدق نجاة والكذب هلكة فقال : « عليكم بالصدق وإن رأيتم فيه الهلكة فإن فيه النجاة ، وإياكم والكذب ، وإن رأيتم فيه النجاة ، فإن فيه الهلكة » .

ونفر الإسلام من الكذب وقبح المتصف به ولعنه : ففى القرآن الكريم « فنجعل لعنة الله على الكاذبين » ، بل عد الكذاب لانصيب له فى الإيمان ، وذلك قول الله تعالى « إنما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله » وفى الحديث : سئل الرسول صلى الله عليه وسلم « أيكون المؤمن كذاباً ؟ قال : لا » .

وقد أثنى الله سبحانه وتعالى على قوم يحبهم ويحبونه ، لصراحتهم فقال سبحانه « فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه ، أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين ، يجاهدون فى سبيل الله ولايخافون لومة لائم» . وقصارى القول : أن الإسلام جعل الصدق والصراحة الدعامة الكبرى لتشييد صرح السعادة فى العاجل والآجل .

شهادة الزور

إذا سألك إنسان عن حال رجل وأخلاقه وأمانته ودينه ، فأجبته بغير ما تعرف وتعلم ، كأن كان فاسقاً فقلت : إنه صالح ، أو كان صالحاً فقلت إنه من المفسدين — فقد غششت سائلك و « من غشنا فليس منا » . هكذا قال الرسول صلى الله عليه وسلم .

وإذا سألك امرؤ يريد الزواج عن فتاة تعرفها وتعلم صفاتها وأخلاقها ، وأهلها ، فلم تصدق الحقيقة ، ولم تذكر له الحق الذى تعرفه ، فقلت له : إن شكلها جميل وهى قبيحة ، أو قلت له إنها دميمة وهى جميلة ، أو أجبته أن أخلاقها وسيرها غير حميد والأمر غير ذلك — فقد أسأت ، وكنت من الخائنين .

وإذا سألك عن تاجر ومعاملته للناس ، فقلت له غير الحق ، وعميت عليه أمره ، فمدحته وهو من المذمومين — فاعلم أنك بذلك أغضبت رب العالمين ، وعاديت نبيك الكريم . ومحل ذلك كله إذا كان سائلك ممن له مصلحة تتعلق بمن يسألك عنهم ، فيلزم ديانة وإنسانية أن تصدقه الخبر ، وأن تبذل له النصيحة خالصة لوجه الله

أما إذا كان السائل ممن يبحثون عن عورات الناس وسوآت عباد الله ، للتشهير بهم والقدح فى أعراضهم ، فليكن جوابك له على كل سؤال قول الرسول صلى الله عليه وسلم « من حسن إسلام المرء تركه مالا يعنيه » وقل له : « العاقل من اشتغل بعيوبه عن عيوب الناس » .

واعلم أخى — وفقك الله — أن كل ماقدمته لك من أسئلة وأجوبة داخل فى شهادة الزور ، وشاهد الزور إنسان ولكنه فاقد الكرامة ، رجل ولكنه عديم المروءة ، مؤمن ولكنه من أهل النار مسلم ولكنه تبرأ منه الحبيب المختار .

أولا : شاهد الزور أساء إلى نفسه حيث عرضها للامتهان فى الدنيا ، ولعذاب الآخرة أشد وأخزى .

ثانياً : أساء إلى القاضى بشهادته حيث أضله عن طريق الهدى ولولا شهادته لكان القاضى من المهتدين .

ثالثاً : أساء لمن شهد له ، حيث جرأه على المفاسد والمخازى وأكل أموال الناس بالباطل .

رابعاً : أساء إلى من شهد عليه وأضاع حقوقه وخذله فى وقت يجب عليه أن يقرر الحق ولو على نفسه أو الوالدين والأقربين .

خامساً : أساء إلى الهيئة الاجتماعية بنشره للفساد وإعانة الظالمين

سادساً : أساء إلى محمد عليه الصلاة والسلام ، حيث خالف أمره ، وهجر هديه ، ونقض عهده .

وإنى أقص على شاهد الزور حديثا واحداً عن الرسول فى شهادة الزور لعله يسمع ويتوب ، ويقلع عن محاربة علام الغيوب :

عن أبى بكرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟ قالوا : بلى يارسول الله . قال : الإشراك بالله ، وعقوق الوالدين ، وكان متكئا فجلس وقال : ألا وشهادة الزور ، ألا وشهادة الزور ، فما زال يكررها حتى قلنا : ليته سكت » ويقول الله تعالى « يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين » ويقول سبحانه فى وصف الكملة من عباده « والذين لا يشهدون الزور وإذا مروا باللغو مروا كراما » .

حكاية صوفى

يحكى أن أبا يزيد البسطامى الصوفى ، لما أراد الذهاب إلى بغداد لطلب العلم ، أعطته أمه أربعين ديناراً ميراثه فى أبيه ، وقالت له : ضع يدك فى يدى ، وعاهدنى على الصدق لاتكذب ، فعاهدها على ذلك وخرج مع قافلة يريد بغداد ، وفى أثناء الطريق خرج اللصوص ونهبوا كل مافى القافلة ، ورأوا البسطامى رث الثياب فقالوا له : هل معك شىء ؟ قال : معى أربعون ديناراً ، فضحكوا منه وحسبوا أنه أبله . وتركوه ورجعوا بما غنموا إلى كهف به كبير اللصوص ، ينتظر ما يأتون به ، فلما رآهم قال : هل أخذتم كل مافى القافلة ؟ قالوا : نعم إلا رجلا سألناه عما معه فقال : معى أربعون ديناراً ، فتركناه احتقاراً لشأنه ، ونظن أن به خبلا فى عقله . فقال : علىّ به . فلما حضر بين يديه قال : هل معك شىء ؟ قال : معى أربعون ديناراً . قال : أين هى ؟ فأخرجها وسلمها له . فقال كبير اللصوص : أبك جنون يارجل ؟ كيف ترشد عن نقودك وتسلمها باختيارك ؟ قال له : إننى لما أردت الخروج من بلدى عاهدت أمى على الصدق لا أكذب ، ومحال أن أنقض عهد أمى . فقال كبير اللصوص : لاحول ولاقوة إلا بالله ! رجل يعاهد أمه على الصدق ولا ينقض عهد أمه ، ونحن نعاهد الله على طاعته وامتثال أمره وننقض عهده ! ! تبنا جميعاً إلى الله ! وأمر بردما أخذ من القافلة إلى أربابه . فانظر يارعاك الله كيف هدى الله بصدق البسطامى هؤلاء العصاة ! .

السماحة

هى مَد المشروعات النافعة بالمال ، وبذل المعونة للعوزين ، ومساعدة الفقراء والمساكين . وإن أسعد أمة فى العالم هى التى يقوم أغنياؤها بإنشاء دور العلاج للمرضى ، وبناء الملاجىء لإيواء اليتامى وذوى العاهات ، وتشييد المعاهد العلمية ، وما إلى هذا مما يعود على الأمة بالتقدم والفلاح ، والألفة والإتحاد .

وقد أبدع الإسلام فى هذا الموضوع أى إبداع ، فمرة يدعو إلى البذل بعبارة تسيل رقة وحناناً ، واعداً برد أضعاف ما تنفق فيقول كما فى القرآن الكريم : « من ذا الذى يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة » ، ومرة يحث عليه ويبين أن ما أنفق مدخر عند الله ، وما كان عنده فهو خير مما تخزنون فيقول: «وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيرا وأعظم أجراً» ويقول « مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة ، والله يضاعف لمن يشاء ، والله واسع عليم».

وأى امرىء يسمع قول الله تعالى « ماعندكم ينفذ وما عند الله باق ، ولا تهتز أوتار السماحة فى نفسه ، بل أى إنسان يسمع ذلك التهديد الذى تخر له صم الجبال وتميد من هوله الأرض وتنشق له السموات ، ويقبض يده عن الإنفاق فيما يعود على أمته بالرفاهية والسيادة ؟ اقرأ إن شئت قوله تعالى . « والذين يكنزون الذهب

والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم ، يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم ، هذا ماكنزتم لأنفسكم فذوقوا ماكنتم تكنزون » .

إن الإسلام قد هز العواطف وحض على الإنفاق ، تارة بالترغيب فيما عند الله ، وأخرى بضمان الخلف « وما أنفقتم من شىء فهو يخلفه ، وهو خير الرازقين ، وآنا بالتنفير من رذيلة الشح « ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » .

بل ذهب الإسلام إلى أقصى حدود الحث على البذل ومدّيد المعونة المعوزين ، فمدح الذين يؤثرون غيرهم على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة . ونفر الرسول صلوات الله عليه من الشح وأخبر أنه أهلك الأمم الماضية ، فقال « اتقوا الظلم فان الظلم ظلمات يوم القيامة ، واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم : حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم » .

أليس الاسلام بفرضه اخراج جزء معلوم من الأموال (الزكاة) يعطى للفقراء كل عام قد حل عقدة الاشتراكية التى شغلت بال العالم أجمع ؟ ويجدر بى فى هذا المقام أن أذكر لك كلمة فى :

الحرص والطمع

يدل الطمع والحرص على ضعف اليقين وعدم الثقة بالله تعالى ، وعلى حب الجمع والادخار . ولا أدرى هل الطمع والله

الحرص أو مولود له ! ومهما يكن من شيء فهما خصلتان مذمومتان ، ما تلبس بهما إنسان إلا سلب الهناءة والراحة ، فيصبح من نفسه فى عناء والناس منه فى بلاء ، لا يرضى بالكثير ، ولا يصبر على القليل ، بل استعبده الطمع وأذله الحرص ؛ فهو الحقير وإن ظنه الناس عظيما ، والفقير وإن حسبه البعض غنياً ، والعبد وإن زعم الحرية .

من كان ذا مال كثير ولم يقنع فذاك الموسر المعسر
وكل من كان قنوعا وإن كان مقلا فهو المكثر
الفقر فى النفس وفيها الغنى وفى غنى النفس الغنى الأكبر

ويكاد أن يكون هذا معنى قوله صلى الله عليه وسلم : « ليس الغنى عن كثرة العرض ، إنما الغنى غنى النفس » .

والطمع غريزة فى النفس لا تشبع ولو أعطيت الدنيا وما فيها وذات الكلمة مركبة من حروف « ط م ع » كلها مجوفة . وفى البخارى وغيره : « يهرَم ابن آدم ويشِبُّ ومعه اثنتان : الأمل ، وحب المال » ، وفى حديث آخر « لو كان لابن آدم واديان من ذهب لابتغى لهما ثالثاً ، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ، ويتوب الله على من تاب » . والطمع أساسه الشك فيما قدره الله للإنسان من رزق . فالمتسم به خسر الدنيا والآخرة ، ذلك هو الخسران المبين .

ويعجبنى قول بعض الحكماء : لو قيل للطمع من أبوك ؟ قال : الشك فى المقدور . ولو قيل ما حرفتك ؟ قال : اكتساب الذل .

ولو قيل ما غايتك ؟ قال الحرمان ... فهو فساد للدين ، وضياع للدنيا

يروى أنه لما دخل على بن أبى طالب كرم الله وجهه جامع البصرة ووجد القصاص يقصون ، أقامهم ، حتى جاء إلى الحسن البصرى فقال له : يا فتى إنى سائلك عن أمر فإن أنت أجبتنى عنه أبقيتك ، وإلا أقمتك كما أقمت أصحابك ، وكان قد رأى عليه سمتا وهديا . فقال الحسن : سل عما شئت . قال : ما ملاك الدين ؟ قال: الورع ، قال : فما فساد الدين ؟ قال : الطمع . قال : اجلس ، فمثلك من يتكلم على الناس . وليس من الطمع أن تسعى وتجد فيما يقوم بأودك ويحفظ عليك كرامتك وعرضك ، فهذا واجب الدين ، وطريق الحياة الشريفة ، إنما الشائن أن تذل نفسك وتنظر إلى ما فى يد غيرك ، فقليل مع الكرامة أفضل من الدنيا وما فيها مع المذلة والمهانة . وصدق القائل :

العبد حر ما قنع والحر عبد ما طمع
فاقنع ولا تطمع فما شىء يشين سوى الطمع

ولو رجع المسلم إلى الدين وإلى ما جاء عن النبى صلى الله عليه وسلم لعلم أن الرزق مكتوب مع الأجل ، وأن الطمع لا يزيد المرء إلا عذابا وتعباً ، وأنه لن يخرج من الدنيا حتى يستوفى ما كتبه الله له . ففى حديث ابن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسم : « إن روح القدس نفث فى روعى أن نفساً لن تموت حتى تستكمل رزقها ، فاتقوا الله وأجملوا فى الطلب ».

وتأمل معى — رزقت الرضا — هذا الحديث المروى فى الصحيحين ، تعرف كيف كان رسولنا صلوات الله تعالى عليه يرغب فى القناعة بعبارات تزيل غريزة الطمع ، وتقضى على شهوة الحرص والشره ؛ فعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « اشترى رجل من رجل عقاراً فوجد الذى اشترى العقار فى عقاره جرة فيها ذهب ، فقال له الذى اشترى العقار : خذ ذهبك إنما اشتريت منك الأرض ولم أشتر الذهب ؛ وقال الذى له الأرض : إنما بعتك الأرض وما فيها . فتحاكما إلى رجل ، فقال الذى تحاكما اليه : ألكما ولد ؟ قال أحدهما : لى غلام ، وقال الآخر : لى جارية ، قال أنكحا الغلام الجارية ، وأنفقا على أنفسهما منه ، فتصرفا » .

فانظر — رحمك الله — إلى زهد الرجلين فى حطام الدنيا ، وتمنع كل منهما عن أخذ الذهب !

ولو حدث هذا فى زماننا لسالت الدماء أنهاراً ، فقد أصبحنا فى عصر يدعو الطمع الشخص فيه إلى سلب أموال الناس والجور عليهم . ففى سبيل الشره والحرص وجمع المال يرتكب المرء لمنكرات ويفعل الموبقات .

فطن بكل مصيبة فى ماله وإذا أصيب بدينه لم يشعر

والطمع مرض كسائر الأمراض الخبيثة التى تفتك بالمجتمع الإنسانى ، فعنه يتولد بين الناس الحقد والبغضاء ، والحسد والعداوة

والجفاء. وعلامة المتصف به البخل والحرص والشره والشح ، فهو داء مهلك ووباء وبلاء . ولصيانة النفس منه يجب الاقتصاد فى المعيشة ، وحسن الثقة بالله ، واعتقاد أن ما كان للعبد سوف يأتيه وبذلك ترضى وتقنع . انظر إلى قول الأول :

والنفس راغبة إذا رغبتها وإذا ترد إلى قليل تقنع

وإذا كان الانسان ليس له من الدنيا إلا ما أكل فأبلى، أو لبس فأفنى ، أو تصدق فأمضى ، فلماذا الطمع والتطلع إلى ما فى أيدى الناس مع ما فى التطلع من ضياع الشرف وذهاب المروءة وفقد الكرامة !

وما أحسن تلك الحكمة « استغن عمن شئت تكن نظيره ، واحتج إلى من شئت تكن أسيره ، وأحسن إلى من شئت تكن أميره » . ولعمر الحق : إن القناعة كنز لا يفنى ، وهى رأس مال الصالحين ، وأهل السعادة المتقين ، من رُزقها فقد رزق الخير ، ومن حُرمها حرم نعيم الدنيا والآخرة . وقد أحسن وأبدع الإمام الشافعى فى قوله :

أمتُّ مطامعى فأرحت نفسى فإن النفس ما طمعت تهونُ
وأحييتُ القنوع وكان ميتا ففى إحيائه عرضى مصون
إذا طمع يحل بقلب عبد علته مهانةٌ وعلاه هُون

رزقنا الله القناعة والرضا ، إنه على ما يشاء قدير .

الحيـــاء

الحياء خلق الكرام ، وسمة أهل المروءة والشرف ، وعنوان الفضل والنبل ، إذ هو ترك ما يشين خوف المذمة والفضيحة .

ولقد صدق أهل اللغة فى قولهم :الاستحياء من الحياة،واستحيا الرجل من قوة الحياة فيه ، لشدة علمه بمواقع العيب والذم .

والحياء باعثه إحساس رقيق ، وشعور دقيق ، يبدو فى العين مظهره ، وعلى الوجه أثره ، من حرمه حرم الخير كله ، ومن تحلى به ظفر بالعزة والكرامة ونال الخير أجمع ؛ فعن عمران بن حُصين رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «الحياء خير كله» وعن ابن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مر على رجل من الأنصار وهو يعظ أخاه فى الحياء — يعيبه عليه — فقال صلى الله عليه وسلم : « دعه فإن الحياء من الإيمان » .

والحياء زينة النفوس ، يصدها عن فعل ما يشينها ، ويحملها على التحلى بجميل الخصال ؛ فهو أبداً لا يأتى إلا بخير . وكفى به خيراً أن يكون على الخير دليلا . وكفى بضده البذاء شراً أن يكون إلى الشر سبيلا . ومن حكم المتقدمين «من كساه الحياء ثوبه ، لم ير الناس عيبه» .

ورب قبيحة ما حال بينى وبين ركوبها إلا الحياء

والحياء شعبة من شعب الإيمان ، وفضيلة من فضائل الاسلام وخلق من أخلاق نبينا صلوات الله عليه . فعن أبى سعيد الخدرى

رضى الله عنه قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أشد حياء من العذراء فى خدرها . وكان صلى الله عليه وسلم إذا كره شيئاً عرفناه فى وجهه . وكان لطيف البشرة ، رقيق الظاهر ، لا يشافه أحداً بما يكرهه حياء وكرم نفس » . ومن خلع برقع الحياء عن وجهه فقد خلع ثوب الإيمان عن نفسه . فى الحديث عن الرسول الأكرم « الحياء شعبة من الإيمان ، ولا إيمان لمن لاحياء له » . وفى حديث آخر « الحياء والإيمان قرناء جميعاً ، فإذا رفع أحدهما رفع الآخر » وروى أبو سلمة عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « الحياء من الايمان ، والايمان فى الجنة . والبذاء من الجفاء والجفاء فى النار » .

والحياء أقسام ثلاثة : (١) حياء المرء من الله (٢) حياؤه من الناس (٣) حياؤه من نفسه .

فالحياء من الله تعالى : ألا يراك حيث نهاك ، ولا يفقدك حيث أمرك ، وإنما يكون هذا فى المرء الذى نور الايمان فى قلبه ، فيرى أن الله مطلع على سره وجهره ، لاتخفى عليه خافية من أمره « يعلم السر وأخفى » .

فاذا استشعر الانسان ذلك ، وملك خوف الله عليه حواسه ، أقدمَ على فعل ما أمره به مولاه ، وابتعد عما نهاه عنه ، فلا يقصر فى طاعة ، ولا يرتكب معصية ؛ فان الحي يخاف فضيحة الدنيا وفضيحة الآخرة ، ولمن خاف مقام ربه جنتان . فترى المتخلق بهذا الخلق سره كعلانيته ، ما يأتيه سراً يفعله جهراً ، ولا يأتى إلا المحاسن

وليس هو من أولئك الذين يتظاهرون بالاستقامة والصلاح ، فإذا ما خلَوا بأنفسهم انغمسوا فى المعاصى والآثام ، ظنا منهم ألا رقيب عليهم والله من ورائهم محيط .

إن من يركب الفواحش سراً حين يخلو بسره غيرُ خال
كيف يخلو وعنـــده كاتباه شاهداه وربُّه ذو المحال

فدليل حيائك من الله أن توجه نفسك إلى الخير المحض ، فتقومَ بوظائف العبودية من صلاة ، وصيام ، وحج ، وزكاة ، وتصرف أعضاءك فيما خلقت لأجله ، فلا تستعمل العين فى النظر إلى حرم الله ، ولا اللسانَ فى القذف والسباب والغيبة والنميمة ، ولا اليدَ فى البطش والايذاء ، ولا تدخل بطنك حراما ، ولا تتبع عورات إخوانك ، ولا تضمر لهم سوءاً ولا شرا ، يرشدك إلى ذلك قول النبى صلى الله عليه وسلم « استحيوا من الله . قالوا : إنا نستحي من الله يا رسول الله والحمد لله . قال : ليس ذلك ، ولكن الاستحياء من الله حق الحياء أن تحفظ الرأس وما وعى ، والبطن وما حوى ، وتذكر الموت والبلى ، ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا ، وآثر الآخرة على الأولى فمن فعل ذلك فقد استحيا من الله حق الحياء » .

وهذا النوع أعلى درجات الحياء ، يدعو إليه كمال الدين وقوة اليقين ، وجدير بنفس تحلت بهذا أن يقال لها : « يأيتها النفس المطمئنة ارجعى إلى ربك راضية مرضية ، فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى » .

والحياء من الناس : يكون بترك فعل ما يشين ، وكف الأذى عنهم ، وستر مساوئهم ، والعفو عن هفواتهم ، وعدم الظهور بمظهر الفجور أمامهم . ففى الحديث « مِن تقوى الله اتقاءُ الناس » .

ومن الناس من يتلذذ بذكر فسوقه وعصيانه ، فيذيع لجلسائه ما ستره الله عليه ، فيعرض نفسه للحرمان من عفو الله ورحمته . وفى هذا يقول الصادق الأمين صلى الله عليه وسلم « كل أمتى معافى إلا المجاهرين ، وإن من المجانة أن يعمل الرجل بالليل عملا ثم يصبح وقد ستره الله فيقول يا فلان عملت البارحة كذا وكذا وقد بات يستره ربه ، ويصبح فيكشف ستر الله عنه » .

وهذا حال الكثير من شباب اليوم : غاض ماء الحياء من وجوههم ، فلاهم لهم إلا معاكسة النساء فى الطرقات ، والتظاهر بفعل المنكرات ، والتباهى بما ارتكبوا من موبقات . وما دروا أن حياة الوجه بحيائه ، كما أن حياة الغرس بمائه . وقد صدق الأول :

إذا قل ماء الوجه قل حياؤه ولا خير فى وجه إذا قل ماؤه

ومن سلب الحياء استوت عنده الفضيلة والرذيلة . ومن وصل إلى هذه المنزلة الدون ، لا يبالى ما يأتى من الشرور والقبائح إذ قد تجرد من كل فضيلة وشرف . وفى مثل هذا يقول النبى صلى الله عليه وسلم : « إذا لم تستح فاصنع ما شئت » .

ولقد أبدع وأجاد فى هذا المعنى من قال :

إذا لم تصن عرضاً ولم تخش خالقاً وتستحى مخلوقا فما شئت فاصنع

وأما حياء المرء من نفسه : فهو أن لا يعمل عملا فى السر يستحى منه فى العلانية . فإن النفس متى أشربت الفضيلة ، أصبحت الفضيلة عادة لها ، تقودها إلى المحاسن ، وتنأى بها عن الدنايا . ولبعض الصالحين : من عمل فى السر عملا يستحى منه فى العلانية فليس له عند نفسه قدر . وإنما يستوى عمل السر والاعلان لدى النفوس الكبيرة التى جعلت رقيباً عليها ضميرها الحى وشرفها التليد . وتلك نفوس أصحاب المروءات الذين أنار الله قلوبهم بنور الايمان ، وحلاهم بالتقوى ومكارم الأخلاق .

وها أنت ترى أن الحياء من الله يشمل الحياء من النفس والناس فمن استحيى من الله استحيا من النفس والناس ، ومن لا فلا . وليس من الحياء أن ترى حرمات الله تنتهك وتسكت ، بل السكوت فى هذه يعد جبناً وضعفاً فى الدين وعدم اعتداد بشرف النفس . ففى الحديث «من رأى منكم منكراً فليغيّره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه ، وهذا أضعف الايمان» . وبالاجمال فخلق الحياء يكسب المرء الثناء فى الحياة . وجميل الذكرى بعد الموت ، وهو سمة أهل الدين ، وشعار الصالحين ، وخلق من أخلاق هذا الدين .

المروءة

المروءة كلمة لفظها كمعناها حلو جميل ، إن قرعت السمع فعظمة وجلال ، وإن نفذت إلى القلب فنبل وسمو وشعور بالكرامة والكمال . ولست أعدو الحق إن قلت إن المروءة هى جماع الفضائل

وراس المكارم وعنوان الشرف ، بها يسمو المرء ويرتفع ذكره، وبفقدها يفقد كل مكرمة وفضل. فهى ميزان الرجال وأصل الجمال.

وحدُّ المروءة : تجمُّل النفس بما يزينها ، وتحصينها مما يشينها ، بحيث تكون للمحامد أهلا ، وعن المذام بمنأى . ولا يكون ذلك إلا لمن راض نفسه على التخلق بالخلق الحسن من الصفات ، والتجمل بجميل العادات ، حتى يصبح التطبع جبلة ، والتعود غريزة . وليس يستطيع ذلك إلا من جاهد نفسه ونازع هواه ، رغبة فى حسن الأحدوثة والذكرى الجميلة ، وحذرا من شين يزرى بسمو النفس وينقص من كمالها ، ولذا قيل من شرائط المروءة أن يتعفف عن الحرام ، ويتصلف عن الآثام ، وينصف فى الحكم ، ويكف عن الظلم ، ولا يطمع فيما لا يستحق ، ولا يستطيل على من لا يسترق ، ولا يعين قوياً على ضعيف ، ولا يؤثر دنيئاً على شريف ، ولا يسر ما يعقبه الوزر والإثم ، ولا يفعل ما يقبح الذكر والاسم .

وما المرء إلا حيث يجعل نفسه ... فنى صالح الأعمال نفسك فاجعل

ولا تكاد تجد ذا مروءة إلا إذا كانت نفسه شريفة وهمته عالية ، إذ شرف النفس يدعو إلى إعزازها وإكرامها عن اقتراف ما يحط من شأنها وينقص من قدرها . فشريف النفس لا يقبل الهوان ، ولا يتحمل المذلة من أى إنسان .

إذا أنت لم تعرف لنفسك حقها ... هوانا بها كانت على الناس أهونا

فنفسك أكرمها وإن ضاق مسكن ... عليك لها فاطلب لنفسك مسكنا

وإياك والسكنى بمنزل ذلة يعد مسيئاً فيه من كان محسناً

وعلو الهمة يحمل المتحلى به على الترفع عن الدنايا من ظلم الناس والكذب عليهم ، وخلف مواعيدهم ، وكيف يكون عالى الهمة من يجور على غيره ، ويفترى الكذب فى حديثه ، ولا يفى بما يعد ! إن هذا إلا وصف اللئام وحلية الأدنياء من أشباه الرجال ولذا يقول النبى صلى الله عليه وسلم : « إن الله يحب معالى الأمور وأشرافها ، ويكره دنيها وسفسافها » . ويقول : « من عامل الناس فلم يظلمهم ، وحدثهم فلم يكذبهم ، ووعدهم فلم يخلفهم ، فهو ممن كملت مروءته ، وظهرت عدالته ، ووجبت أخوته» . ولأصحاب المروءات علامات تدل عليهم ، وأمارات ترشد اليهم ، كما قال الأول :

ومعشر صيد ذوى تجلة ترى عليهم للندى أدلة

فهم لأرحامهم واصلون ، ولأموالهم باذلون ، وبتقوى الله عاملون ، يتعففون عن المحارم ، كما يترفعون عن المآثم ، لايفعلون الفحشاء ، ولا يخوضون فيما لا يعنيهم ، شغلهم كرم نفوسهم عن الناس إلا فيما يعود على العباد بالخير والنفع .

روى أن معاوية ابن أبى سفيان سأل عمراً عن المروءة ، فقال : تقوى الله تعالى ، وصلة الرحم . وسأل المغيرة فقال : هى العفة عما حرم الله تعلى ، والحرفة فيما أحل الله تعالى . وسأل يزيد فقال : هى الصبر على البلوى ، والشكر على النعمى ، والعفو عند المقدرة . فقال معاوية : أنت منى حقا . وقال أحد الحكماء لابنه : الكامل المروءة من حصن دينه ، ووصل رحمه ، وأكرم إخوانه .

ولعمر الحق ما المروءة إلا فى التمسك بأهداب الفضيلة ، والعمل بأوامر الدين . فالدين يأمر باحسان ويرغب فيه ، ويحث على إغاثة الملهوف ، وإعانة المحتاج . كما يأمر بصلة الأرحام ؛ وضبط الفرج والبطن عن الحرام . فالمروءة هى الدين ، والدين هو المروءة .

وليست المروءة أن تعين إنساناً بمالك أو جاهك فحسب ، ولكن أن تكون تقوى الله أساس عملك ، والعمل على مرضاته أول همك ؛ فلا تعمل فى السر ما تخاف مذمته فى العلانية ؛ فإن ذلك برهان خبث النفس ، ودليل لؤم الطبع . وعلى ما رسمنا من حد المروءة وشرائطها صح لذلك الذى رأى ما عليه الناس من النقص وفقد المروءة أن يقول :

مررت على المروءة وهى تبكى ... فقلت علام تنتحب الفتاة
فقالت كيف لا أبكى وأهلى ... جميعاً دون خلق الله ماتوا

واعلم — هديت إلى الرشاد — أن صيانة النفس عن الابتذال وذل السؤال بالجد والكفاح فى الحياة لتحصيل مايصلحك ويقوم بأود من تعول ، هو لب المروءة وسَنامها ، ولن يضير ذوى المروءة أن يعملوا لكسب العيش وإصلاح الحال من أى طريق ، ما دام طريقا مشروعا ؛ بل هذا هو الذى حث عليه الدين ؛ ورغب فيه سيد المرسلين صلوات الله وسلامه عليه ؛ حفظاً للكرامة ؛ وصيانة للنفس من الهوان الذى يلحقها بذل السؤال ؛ وذهاب ماء الحياء بالتطلع إلى ما فى أيدى الناس . ولذا ترى أصحاب رسول الله صلى

الله عليه وسلم حين هاجروا من مكة إلى المدينة ؛ وعرض عليهم الأنصار أن يقاسموهم أموالهم وضياعهم ؛ أبت عزة نفوسهم أن يقبلوا ذلك وقالوا لاخوانهم الأنصار : دُلونا على السوق نبيع ونبتاع ، ونأكل من عمل أيدينا . تلك وربى هى العزة « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين » .

فبالعمل يتمكن المرء من إصلاح شأنه ، وبرإخوانه ، والعطف على جيرانه ، ونيل عظيم الثواب بصلة أرحامه .

ومن تمام المروءة إيثار الغير على النفس ؛ وقد أثنى الله سبحانه وتعالى على الأنصار فى كتابه الكريم ، ومدحهم بما حلوا به أنفسهم : « ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة » .

ومما يروى فى الإيثار على النفس ما حدث به أبو عبد الله محمد ابن عمر الواقدى قال :

كان لى صديقان أحدهما هاشمى ، وكنا كنفس واحدة ، فنالتنى ضائقة شديدة ، وحضر العيد ، فقالت امرأتى : أما نحن فنصبر على البؤس والشدة ، وأما صبياننا هؤلاء فقد قطعوا قلبى رحمة لهم ، لأنهم يرون صبيان الجيران قد تزينوا فى عيدهم ، وأصلحوا ثيابهم وهم على هذه الحال من الثياب الرثة ، فلو احتلت فى شىء فصرفته فى كسوتهم ! قال : فكتبت إلى صديق الهاشمى أسأله التوسعة على بما حضر ، فوجه إلى كيساً مختوماً ذكر أن فيه ألف درهم ، فما استقر قرارى حتى كتب إلى الصديق الآخر يشكو مثل ما شكوت

إلى صاحبي الهاشمي ، فوجهت إليه الكيس بختمه ، وخرجت إلى المسجد فأقمت فيه ليلتي مستحييا من امرأتي . فلما دخلت عليها استحسنت ما كان مني ولم تعنفني عليه ، فبينا أنا كذلك إذ وافى صديقي الهاشمي ومعه الكيس كهيئته وقال لي : اصدقني عما فعلته فيما وجهت به إليك . فعرفته الخبر على وجهه ، فقال لي : إنك وجهت إلي وما أملك على وجه الأرض إلا ما بعثت به إليك ، وكتبت إلى صديقنا أسأله المواساة فوجه إلي كيسي بخاتمي . قال الواقدي : فتواسينا ألف الدرهم ! .

وأين من يفعل ذلك أينا ، أولئك قوم شروا الثناء في الدنيا والنعيم في الآخرة بعرض زائل وحطام بائد ، فرجوا به عن إخوانهم الكربات ، فنالوا الحسنيين ، وفازوا بالسعادتين .

يبقى الثناء وتذهب الأموال ولكل دهر دولة ورجال
ما نال محمدة الرجال وشكرهم إلا الجواد بماله المفضال
لا ترض من رجل حلاوة قوله حتى يصدق ما يقول فعال

ومروءة الرجل ذخيرة لأولاده من بعده ، ينالون بها جميل العطف ، ويدفع بها عنهم كثيراً من حوادث الدهر ونوائبه .

حكي الإمام علي كرم الله وجهه قال : لما أتينا بسبايا طيء كان في الناس جارية حسناء تقدمت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالت : يا محمد هلك الوالد ، وغاب الوافد ، فإن رأيت أن تخلي عني فلا تشمت بي أحياء العرب ، فإني بنت سيد قومي ، كان أبي

يفك العانى، ويحمى الذمار، ويقرى الضيف، ويشبع الجائع، ويفرج عن المكروب، ويطعم الطعام، ويفشى السلام، ولم يرد طالب حاجة قط، أنا بنت حاتم طيء. فقال لها النبى صلى الله عليه وسلم: ياجارية هذه صفة المؤمن، خلوا عنها فإن أباها كان يحب مكارم الأخلاق.

ولو ذهبت أحصى لك أخبار أهل المروءة من سلفنا الصالح وآبائنا الأماجد، ومواساتهم لمن يعرفون ومن لا يعرفون، لما اتسع لى ولك المجال، ولكن ينبغى أن تعرف:

أن المروءة ليس يدركها امرؤ ... ورث المكارم عن أب فأضاعها
أمرته نفس بالدناءة والخنا ... ونهته عن سبل العلا فأطاعها
فإذا أصاب من المكارم خلة ... يبنى الكريم بها المكارم باعها

الآداب

قد أسلفنا لك القول فى أصول الأخلاق وبعض فروعها، وبقى مما يرتبط بالأخلاق قسم الآداب.

والآداب نوعان: شخصية، مظهر آثارها ذات الشخص، وآداب عامة تحدد علاقة الانسان بغيره من بنى جنسه.

والآداب الشخصية منها ما يرجع إلى حفظ صحة البدن وتنميته وتقويته، ومنها ما يرجع إلى حفظ القوى العاقلة وتغذيتها بما يزيدها من العلوم والمعارف. وإنى أذكر لك ما به حفظ جسمك وتقوية بدنك، مع العلم أن صحة الأبدان بها قوام الحياة الصحيحة، وعليها يقوم بناء عظمة الأمم. وقد قرر الأطباء أن الوقاية خير

من العلاج» . وأحسب أن هذه القاعدة التى ذكرها الأطباء مأخوذة من الإسلام ، وأن الدين الإسلامى وضع نظاما لحفظ الصحة لو سار عليه العالم لكفاه غائلة الأمراض الفتاكة ، فشرع نظافة الجسم والملابس والمكان ، ونهى عن البول والبراز فى الماء ، إذ يتسبب عن ذلك وجود (ميكروبات) (البلهارسيا والانكلستوما) فتحدث العدوى وينتشر المرض ، وندب المسلمين إلى تقليم أظافرهم وقص بعض شعورهم كالشارب حتى لا يتلوث بشىء من الطعام والشراب، وحث على الاغتسال ونظافة الجسم بمثل قول النبى صلى الله عليه وسلم «غسل الجمعة واجب على كل محتلم». وسن خير الأنظمة للوقاية من التخمة ، ففى الأثر «نحن قوم لا نأكل حتى نجوع ، وإذا أكلنا لا نشبع» وفى الحديث «ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطنه ، بحسب ابن آدم لقيمات يُقمن صلبه ، فإن كان لا محالة فاعلا فثلث لطعامه وثلث لشرابه ، وثلث لنَفَسه» .

ومن الآداب الشخصية التى تعود على الجسم بالنماء والحفظ اجتناب كل ما يضر بالبدن والعقل . فالخمر والحشيش والأفيون والمورفين وما شاكل ذلك تضر بالأجسام والعقول والأموال ضرراً بليغاً فقد قرر الأطباء أن الخمر تؤثر على الكبد والطحال والأمعاء ، وبسببها تضمر الشرايين التى يمر بها دم الحياة ، وفوق ذلك هى خالية من كل مادة غذائية ، مع تأثيرها الخطر على العقل والمال لذلك حرمها الإسلام وشدد فى تحريمها ، وأنزل فيها رب العالمين

إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون » . وفى الحديث « من زنى أو شرب الخمر نزع الله منه الإيمان كما يخلع الرجل قميصه من رأسه » ومن تعاليم الاسلام « لايجتمع الخمر والإيمان فى قلب عبد» . وعدها أم الخبائث وأم الكبائر ، ولعن شاربها وبائعها وحاملها والمحمولة اليه ، وأوجب فى شربها الحد ثمانين جلدة بمشهد من المسلمين .

ولو أردت إحصاء ما فى الخمر من مساوىء لأعوزنى الأمر إلى كتاب مستقل . ويكفى أن تعلم أن المدمنين عليها فقدوا كرامتهم ، وأضاعوا شخصيتهم ، وباءوا بالخيبة فى الدنيا ، ولهم فى الآخرة عذاب أليم .

ولا يقل ضرر الحشيش والأفيون والمورفين عن ضرر الخمر ، بل يزيد على ذلك . وإن شئت سل موظفى مستشفى المجاذيب تسمع منهم ما يدهشك ، إذ قد ثبت أن ثلثى سكان المستشفى من مدمنى الخمور والحشيش والأفيون والمورفين وبقية المواد المخدرة . وكثيراً ما نرى متعاطى هذه الأشياء وقد ارتسم الخمول على وجهه ، ولازمه الكسل ، وأصبح عضواً غير صالح فى الهيئة الاجتماعية يجب بتره قبل انتشار عدواه .

ومما يزرى بالنفس ويحط من قدرها ، ويقضى على الشرف والكرامة والمروءة . لعب القمار والعكوف على الميسر . فكم من بيوت هوت إلى الحضيض بسبب شقوة أربابها وانغماسهم مع رفقاء

السوء فى هذه الهوة السحيقة! بل كم من بيوت بسبب الميسر بدا عليها الشقاء والذل ، وقد كانت بهجة للناظرين ! . لذلك حرم الاسلام القمار بسائر أنواعه ، ونظمه فى سلك أم الكبائر ، وعده من عمل الشيطان الرجيم «إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون» .

هذه بعض الآداب الشخصية التى ترجع إلى حفظ الجسم وتقويته . وأما ما يعود إلى تنمية العقل وحفظه فليس ذلك إلا العلوم والمعارف ، فبالعلم تدرك العقول كمالها وجمالها .

ولا نتعرض لفضل العلم ، فمزاياه غنية عن البيان . وتقدم البحث واستكشاف عجائب الكون خير برهان على فضل العلم وجلاله . وقد رغب الإسلام فى طلب العلم ، وأمر بتحصيله ، ومدح العلماء . اقرأ إن شئت قوله تعالى « قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون» «إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب» «وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون» . وإن ديناً يحض على تحصيل العلم بمثل قول النبى صلوات الله عليه وسلامه «اطلبوا العلم ولو بالصين» «طلب العلم فريضة على على كل مسلم ومسلمة» «إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم» إلى غير ذلك من الآيات والأحاديث — لهو دين أحق بالاكبار والإجلال .

ومن الآداب الشخصية تربية الارادة على حب الخير والفضيلة والتواضع والعفة ، وحسن الخلق والأمانة ، وإعزاز النفس بالبعد

عن جريمة الزنا والغيبة والنميمة والسعاية، إذ هذه خصال تنافى شرف الآداب وعلو الهمم: هذا نموذج من الآداب الشخصية. وإليك مثل من:

الآداب العامة

الآداب العامة: عبارة عن علاقة المرء بغيره. فاذا حسنت هذه العلاقة، وحل الوفاق محل الخلاف، والمؤاخاة موضع الجفاء بين أفراد الأمة، صلح حالها، وسارت فى طريق التقدم حتى تبلغ كمالها المنشود. وعلى العكس إذا كان أفرادها متناكرين متشاحنين لا تجمعهم رابطة ولا يحسبون لبعض حساباً، فإن ذلك نذير تشتت شملها، ودليل تمزقها وصيرورتها فريسة لأنياب المستعمرين.

والآداب العامة تشمل علاقة الزوجين ببعضهما، وعلاقة الآباء بالأبناء، والأبناء بالآباء، والأقارب بعضهم ببعض.

واجبات الزوجين

الزواج أمر طبيعى يدعو إليه نظام الوجود، وتقتضيه الحياة العمرانية، وتستحسنه الفطر السليمة. فإذا بنى على أساس من المودة والثقة أثمر ثمراً شهياً، وأنتج الهناء والطمأنينة والسعادة المنزلية، فإن أحسن البيوت ما عمر بحسن العشرة، وشرها ما ساءت فيه العلاقات وتقطعت بين الزوجين الصلات. لذلك نذكر لك فى هذا الفصل واجبات الزوجين، وهى:

١ — واجبات مشتركة بين الزوج والزوجة.

٢ — واجبات الزوج نحو زوجته .

٣ — واجبات الزوجة نحو زوجها .

فالواجبات المشتركة بين الزوجين ، منها (الأمانة) وهى أساس السعادة المنزلية ، بل هى روح الزواج وعماده ؛ فأى خيانة تبدو من أحد الزوجين تكدر صفو حياتهما وتنغص عيشهما . فالزنا جريمة اجتماعية ، ومفسدة عظيمة ، تفسد حال النسل ، وتلبس الزناة ثوب الخزى فى الدنيا والآخرة . لذلك جعل الدين الاسلامى عقاب الزانى المحصن (المتزوج) رجمه بالحجارة حتى يموت ، رجلا كان أو امرأة . وكما أن الأمانة مطلوبة من كلا الزوجين فى حفظ العرض كذلك هى مطلوبة منهما فى كل الشئون العائلية من مال وأسرار .

ومن الواجبات المشتركة بين الزوجين التعاون فى شئون مملكتهما الصغيرة . فإنه وإن كان الزوج هو المطلوب منه الانفاق على الزوجة والقيام بحاجيات البيت ، فإن المرأة مطلوب منها أن تحسن التدبير ، وتتوخى وجوه الانفاق ، وتمد زوجها بإرشاداتها ونصائحها .

ومن الواجبات المشتركة العناية بتربية أبنائهما على الفضيلة وحب الخير ، وعدم إسماعهما ألفاظ السباب والنقص . وإنه لمن المؤلم حقاً ما يحدث بين الزوجين من شجار وخلاف أمام أولادهما ، لاسيما إذا استعملا الألفاظ الساقطة ، فإنهما يكونان شر قدوة لأولادهما ، فالتعاون يقتضى توقير كل منهما للآخر ، وإظهار النصح والشفقة وتبادل الثقة .

وحقوق الزوجة على زوجها تنحصر فى حماية عرضها ووقايتها

من كل ما يخدش الشرف، فلا يمكنها من التبرج والخلاعة والاختلاط بالرجال ولو أقاربها غير المحارم ، ففى ذلك فساد كبير وبلاء عظيم . فالدين ينادى بأنه ما خلا رجل بامرأة إلا كان الشيطان ثالثهما . والمرأة تشتهى كما يشتهى الرجل ، ينظر فيتأثر فيميل ، فكذلك المرأة . ويدخل فى حماية عرض المرأة العمل على عدم اختلاطها بالنساء ذوى السيرة المعوجة والسمعة السيئة . وكما يجب عليه ذلك يجب عليه ألا يتركها فى البيت تندب حظها ويقضى ليله فى شهواته ، فإن ذلك يفسد قلب المرأة ، ويدخل سوء الظن فى نفسها ، فيتكدر الصفاء ويزول الهناء ، وتقابل المثل بالمثل ، وفى ذلك بلاء عظيم. وإن هؤلاء الذين يقضون سهراتهم الآثمة مع إخوان السوء يجنون على عفة نسائهم أعظم جناية ، ويضربون أسوأ الأمثال لأولادهم وبناتهم . وصدق الأول :

إذا كان رب البيت بالدف ضاربا فشيمة أهل البيت كلهم الرقص

ومن واجب الزوج القيام بكل حاجيات البيت التى يقتضيها العرف، كل حسب وسعه وطاقته . فالنفقة والكسوة والمسكن من واجبات الزوج لزوجته ، كما عليه أن يعلمها لو كانت جاهلة ما يصلح به دينها ودنياها . فواجب عليه أن يعلمها الصلاة وبعض ما تتفقه به فى دينها . ويرشدها إلى فعل الخير وحب الفضيلة ،فى وداعة ولطف ففى الحديث عن سيد البشر : « استوصوا بالنساء خيراً فإنهن خلقن من ضلع أعوج ، وإن اعوج ما فى الضلع أعلاه ، فان ذهبت تقيمه

كسرته ، وإن تركته لم يزل أعوج .فاستوصوا بالنساء خيراً» . ومن الجنايات الأدبية والدينية أن يتزوج الرجل بأكثر من واحدة ولا يعدل بين زوجاته.فمن ترك العدل فى ذلك «جاء يوم القيامة وشقه مائل».

وواجبات الزوجة التى عليها لزوجها تكون بطاعته فيما يأمر ، وبذل النصح له ، وحفظ عرضه غائباً وحاضراً ، والعمل على سروره وانشراح صدره ، وعدم التبذير فى ماله ، وإظهار البشاشة لوالديه وأهله ، وعدم الخروج من البيت إلا بإذنه ، فإن حقه عليها عظيم . ففى الحديث : «لو أمرت أحداً أن يسجد لأحد لأمرت الزوجة أن تسجد لزوجها» من عظم حقه عليها . وقد بين الدين ما لكل من الزوجين على الآخر من الحقوق والواجبات فى جملة جميلة قصيرة : «ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة ، والله عزيز حكيم».

صلة الأرحام

تحت هذا العنوان نذكر نبذة من حقوق الأولاد على آبائهم ، والآباء على أبنائهم ، وحقوق الأقارب بعضهم على بعض .

فواجب الولد على أبيه تربية جسمه وعقله وخلقه . وتربية الجسم وتنميته إنما تكون باتباع القواعد الصحية فى مأكله وملبسه ومسكنه بقدر ما تسمح به حالة الوالد المادية . وتربية عقله تكون بالتهذيب والتعليم والتثقيف . وتربيـة خلقه تكون بالقدوة الحسنة والنصائح الرشيدة . والولد كما تعلم ينشأ على فطرة سليمة قابلة للتشكيل والتحويل ومن القواعد المقررة « من شب على شىء شاب عليه » . فمن اعتنى

بتربية أولاده صغاراً سُر بهم كباراً ، ومن أهمل شأنهم كان سبباً في خبث نفوسهم وفسادهم ، وعليه في ذلك من المسؤلية الاجتماعية والدينية حمل ثقيل . ففي الحديث «الزموا أولادكم وأحسنوا أدبهم». وإنما يكون التعليم ومعاملة الأولاد بالرفق واللين . ففي البخاري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الرفق لايكون في شيء إلا زانه ، ولاينزع من شيء إلا شانه » ، فإن أنت هذبت أولادك وثقفت عقولهم وعلمتهم مايصلح دينهم ودنياهم ، فقد أديت واجب الدين ، وواجب الوطن ، فإن أحسنوا بعد ذلك فإلى أنفسهم ، وإن أساءوا فعليها: « من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد » .

ومن حكم الإسلام في تربية الأولاد « لاعب ولدك سبعاً ، وهذبه سبعاً ، وصاحبه سبعاً » وبعد ذلك اترك حبله على غاربه .

ومن حقوق الأبناء على آبائهم التسوية بينهم ، فلا يفضل ولداً على بنت ، ولا يميز واحداً على آخر . ففي ذلك خلق للمشاكل العائلية ، وإيقاد نار العداوة بين الأخوة والأخوات . وتنشئة البنت والولد على الفضيلة وحب الخير والتمسك بأوامر الدين من أول واجبات الأبوين ، وهما مسئولان عن ذلك ، لإسعاد الهيئة الاجتماعية . وفي الحديث « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته : الإمام راع ومسئول عن رعيته ، والرجل راع في أهله ومسئول عن رعيته ، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها ، والخادم راع في مال سيده ومسئول عن رعيته ، فكلكم راع ومسئول عن رعيته » .

حقوق الآباء على الأبناء

الآباء هم السبب فى وجود الأبناء ، تحملوا فى تربيتهم المشاق والمصاعب ، وتعبوا فى الحياة لإسعادهم . فواجب الأبناء توقيرهم واحترامهم ، وطاعة أوامرهم فى غير ما يغضب الله وتوفير أسباب الهناء والسعادة لهم وبذل أموالهم لإسعادهم .

وإن المرء مهما عمل نحو والديه ، لن يستطيع مكافأتهما على جميل إحسانهما إليه . فكم سهرت الأم فى تربية أولادها ، وكم شقى الأب فى جلب الهناء لهم . لذلك أوجب الدين والعرف إكرامهما وبرهما والإحسان إليهما ولو كانا على غير دينك .

فقد ورد أنه لما أسلم سعد بن أبى وقاص وعلمت أمه حمنة بنت أبى سفيان بإسلامه ، قالت له : ياسعد بلغنى أنك قد صبأت فوالله لايظلنى سقف من الحر والبرد ، وإن الطعام والشراب علىّ حرام حتى تكفر بمحمد ! . وبقيت كذلك ثلاثة أيام . فجاء سعد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وشكا إليه أمر أمه ، فنزل فى ذلك قول الله تعالى « ووصينا الانسان بوالديه حسنا ، وإن جاهداك على أن تشرك بى ماليس لك به علم فلا تطعهما ، إلىّ مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون » . وصاه سبحانه بوالديه وأمره بالاحسان إليهما ، مؤمنين كانا أو كافرين . أما إذا دعواه للاشراك بالله عز وجل ، فمعصيتهما واجبة ، إذ لاطاعة لمخلوق فى معصية الخالق .

هذا وقد جعل الدين بر الوالدين والسعى فى سعادتهما أفضل

من الجهاد فى سبيل الله ، كما جعل رضاء الله فى رضاهما ، وسخطه فى سخطهما ، وقرن عقوق الوالدين بالشرك بالله .

فنى الحديث « ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟؟ قالها ثلاثاً — قالوا : بلى يارسول الله . قال : الإشراك بالله وعقوق الوالدين » الحديث .

وجاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يارسول الله من أحق الناس بحسن صحابتى (صحبتى) ؟ قال « أمك » قال ثم من ؟ قال « أمك » قال ثم من ؟ قال « أمك » قال ثم من ؟ قال « أبوك » وهذا الحديث يبين أن حق الأم آكد . والجنة تحت أقدام الأمهات .

وأقبل رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أبايعك على الهجرة والجهاد ، وأبتغى الأجر من الله تعالى . فقال « هل من والديك أحد حى ؟ » قال نعم ، بل كلاهما . قال « فتبتغى الأجر من الله تعالى ؟ » قال نعم ، قال فارجع إلى والديك فأحسن صحبتهما » رواه مسلم .

بل تأمل قوله عليه السلام « رغم أنف ، ثم رغم أنف من أدرك أبويه عند الكبر أحدهما أو كلاهما فلم يدخل الجنة » .

والحديث صريح فى أن معاملة الوالدين بالحسنى والعطف والشفقة ، وبالأخص فى حال شيخوختهما ، سبب فى دخول الجنة .

وفى الحديث عن أبى أسيد أن رجلا قال يارسول الله هل بقى من بر أبوى شىء أبرهما بعد موتهما ؟ قال : « نعم الصلاة عليهما ، — الدعاء لهما ، الاستغفار لهما — وإنفاذ عهدهما من بعدهما ، وصلة

الرحم التى لا توصل إلابهما ، وإكرام صديقهما » .

ولا أجدما أختم لك به الكلام فى بر الوالدين أحسن من قول الله تعالى « وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما ، وقل لهما قولا كريما . واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا » .

حقوق الاقارب

قريبك قطعة منك ، إن أحسنت إليه أحسنت إلى نفسك ، وإن أسأت إليه فإنما تمزق أعضاءك ، فبالقريب تكون النصرة والمعاونة ، والاحسان إليه والقيام بحقه والإغضاء عن هفواته تحفظ كيان العائلات ، وتسعد الجماعات ، والمشاهدة أكبر برهان .

لذلك ترى الإسلام أمر بصلة الأرحام ، ونهى عن التقاطع ، وبين أنه سبب الفساد فى الدنيا والوبال فى الآخرة . اقرأ قول النبى صلى الله عليه وسلم ، إن الله تعالى خلق الخلق حتى إذا فرغ منهم قامت الرحم فقالت هذا مقام العائذ بك من القطيعة . قال نعم ، أما ترضين أن أصل من وصلك ، وأقطع من قطعك ؟ قالت : بلى . قال : فذلك لك . ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اقرأوا إن شئتم « فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم . أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم » .

وصلة الأقارب إنما تكون بإظهار البشاشة لهم وملاطفتهم وزيارتهم ومعاونتهم ببذل شيء مما أعطاك الله ، بذلك يبارك الله فى حياتك ويزيد فى رزقك . فعن أنس رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « من أحب أن يُبسط له فى رزقه وينسأله فى أثره فليصل رحمه » . وجاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله إن لى قرابة أصلهم ويقطعوننى وأحسن إليهم ويسيئون إلى ، وأحلم عليهم ويجهلون على ، فقال : « لئن كنت كما قلت فكأنما تسفهم الملّ (الرماد الحار) ، ولا يزال معك من الله ظهير عليهم مادمت على ذلك » .

فان أساء إليك الأقارب فلا تقاطعهم ، بل قابل القطع بالوصل والجفاء بالمودة ، ففى الحديث : « ليس الواصل بالمكافىء ، ولكن الواصل الذى إذا قطعت رحمه وصلها » . وكان من عناية الإسلام بصلة الأرحام عـــدم الاعتداد بالإحسان إلى الأجانب مادام للشخص قرابة محاويج .

وفى الحديث : « الصدقة على المسكين صدقة ، وعلى ذى الرحم ثنتان : صدقة وصلة » .

وقريب من حقوق الأرحام حق الجوار . فالمرء مطلوب منه الإحسان إلى جاره ، ومقابلة هفواته بالصفح ، وإعانته إن كان من ذوى الفاقة . وقد عد الدين إيذاء الجار من علامات خلو المؤذى

من الإيمان . فعن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « والله لايؤمن ، والله لا يأمن ، والله لايؤمن ! قيل من يارسول الله ؟ قال : « الذى لا يأمن جاره بوائقه » البوائق الشرور والأضرار . وفى حديث آخر : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره » .

وفى حديث أيضاً « مازال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورثه » .

والكلام فى حقوق الجار يحتاج إلى سفر منفرد ، فلأجعل ختام البحث فيه قول النبي صلى الله عليه وسلم : « خير الأصحاب عند الله تعالى خيرهم لصاحبه ، وخير الجيران عند الله تعالى خيرهم لجاره » .

إزالة الهموم والاحزان

عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ماقال عبد قط إذا أصابه هم أو حزن : اللهم إنى عبدك ، وابن عبدك ، وابن أمتك ، ناصيتى بيدك ، ماض فى حكمك ، عدل فى قضاؤك : أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته فى كتابك ، أو علمته أحداً من خلقك أو استأثرت به فى علم الغيب عندك ، أن تجعل القرآن ربيع قلبى ، ونور صدرى ، وجلاء حزنى ، وذهاب غمى وهمى ، إلا أذهب الله همه وغمه ، وأبدله مكان حزنه فرحاً » .

وإنما يكون ذلك مع إخلاص النية ، وحسن الطوية ، والتوجه إلى رب البرية ، بالعمل الصالح ، بالقلب والجوارح . وعن ابن مسعود قال : تلا النبي صلى الله عليه وسلم قوله تعالى : « أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه » فقلت : يارسول الله كيف يشرح الله صدره ؟ قال : إذا دخل النور القلب انشرح وانفسح فقلت . ماعلامة ذلك يارسول الله ؟ قال . الإنابة إلى دار الخلود ، والتجافى عن دار الغرور ، والتأهب للموت قبل نزول الموت » .

الأصدقاء والاخوان

الإنسان مدنى بطبعه ، يميل إلى الاختلاط والعشرة ، وحاجة الحياة تقتضى التعاون والتعارف والتآلف . واختيار الانسان لمن يعاشرهم ويخلطهم بنفسه من الأصدقاء والإخوان أمر يحتمه الدين ويدعو إليه العقل السليم . وأحسب أنك لاتجد ديناً حض على الأخوة وتقوية رابطتها أعظم من دين الإسلام . فترى القرآن يأمر بالاتحاد وينهى عن التفرق داعية الخذلان ودليل الفشل ، فيقول: واعتصموا بحبل الله جميعاً ولاتفرقوا ، ويقول ولاتنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم » .

وتراه يذكر أن الإيمان يدعو إلى الإخاء ، وشأن الأخوة الوفاق ، فيقول : إنما المؤمنون إخوة » وترى الرسول صلوات الله عليه يقول : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً » .

بل سل التاريخ يحدثك عن مبلغ الأخوة بين المهاجرين والأنصار حتى كان الواحد من الأنصار يعرض أمواله على أخيه المهاجرى يأخذ منها ماأحب . وتأمل هذه الشريعة السمحة التى تنهى أن يهجر المسلم أخاه فوق ثلاثة أيام . كما تنهى عن التجسس وتتبع العورات ، ليظل الإخاء متيناً ، والمودة محفوظة مصونة . وأرى من الواجب على أن أذكر لك كلمة نافعة إن شاء الله ، موضوعها .

الاخوان

الإنسان أشد المخلوقات محاكاة وتقليدا ، والمحاكاة كما تكون فى الخير تحدث فى الشر ، بل كثيراً مايكون أثرها فى الشر أسرع لأن النفوس إليه أميل ، ولقـــد بلغ من خطر محاكاة الشخص لمعاشريه وامتزاج روحه بأرواحهم وشدة تأثره بهم بحيث فنيت شخصيته فى أشخاصهم ، أن المرء إذا أراد أن يتعرف أخلاق شخص أو معاملاته أو خصلة من خصاله الجميلة أو القبيحة فما عليه إلا أن يختبر صديق ذلك الشخص فيما أراد . وبذلك يمكنه أن يبلغ مايريد بدون عناء . وقد صدق القائل :

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه
فكل قرين بالمقارن يقتدى
إذا كنت فى قوم فصاحب خيارهم
ولا تصحب الأردى فتردى مع الردى

وإذا كان الأمر على ماوصفت لك من خطر الأخوة وأثرها

النافع والضار ، فواجب الحازم الذى يبغى السلامة فى دينه ودنياه أن يبحث عمن يريد أخوتهم ويسبر أحوالهم ويتعرف أخبارهم ، فلا يعاشر إلا من صفت نفسه ، وطهرت روحه ، وحسن خلقه ، وكمل دينه « واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ، ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا » .

أما ذلك الذى ركب رأسه وانغمس فى الشهوات والمنكرات ، فإياك إياك أن تقترب منه ، فإنه مكروب يعدى كما يعدى السليمَ الأجرب . بل هذا هو الحداد الذى يحرق ثيابك أو يؤذيك ريحه . وفى الحديث الذى أتلوه عليه عبرة لمن أراد الاتعاظ :

عن أبى موسى رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «إنما مثل الجليس الصالح والجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير ، فحامل المسك إما أن يحذيك « يعطيك » وإما أن تبتاع منه «تشترى» وإما أن تجد ريحاً طيبة ، ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك وإما أن تجد منه ريحاً خبيثة» .

وليس أبلغ من هذا فى تحبيبك فى معاشرة أهل الصلاح والتقوى ، وتنفيرك من مخالطة أهل الفجور والفساد .

هذا وإن أخا الصدق هو الذى يمحض لك النصح ويخلطك بنفسه ، فأنت هو وهو أنت ، مصلحتك مقدمة على مصلحته ، يدر عليك الخير بيمينه ، ويدفع عنك الشر بشماله . ذلك هو الأخ والخليل والصاحب :

إن أخاك الحق من كان معك ومن يضر نفسه لينفعك
ومن إذا ريب الزمان صدعك شتت فيك شمله ليجمعك

ولقد ضرب لنا أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أحسن الأمثال بإخائهم العجيب الغريب، فقد كانوا يتقاسمون الأموال والضياع، بل كان يؤتى بالطعام لأحدهم وهو فى أشد حالات الجوع فيقول «اذهبوا به إلى أخى فلان فهو أشد منى جوعا» ولكن هؤلاء قوم :

عصف الدهر بهم فانقرضوا وكذاك الدهر حال بعد حال

وخلف من بعدهم خلف اتخذوا الصداقة والأخوة لتنفيذ مآربهم الوضيعة، وغاياتهم الدنيئة ، فترى الناس فى زماننا يسعون فى مؤاخاة الأغنياء رجاء منفعة ينالونها . ولذا ترى هذه الأخوة مضطربة لاتدوم إلا بدوام هذه المنفعة ، فاذا تحول الغنى إلى فقر فسرعان ماترى هؤلاء الإخوان ولو وجوههم شطر غيرك ، وتواروا عن رؤيتك . ومثل هؤلاء لاقيمة لأخوتهم ولا حرمة لشخصيتهم، ولن تثمر أخوة بنيت على أساس من النفاق والملق ، وإنما تنتج الأخوة أشهى الثمر إذا كان عمادها إشراق القلوب وتآلف الأرواح .

ومن الحكم المأثورة « إعرف الرجل من فعله لامن كلامه ، واعرف محبته من عينه لامن لسانه » .

وفى الحديث « الأرواح جنود مجندة ، فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف» وإنك لن تجد أخاً وفياً إلا إذا كان ذا خلق ودين . وفى ذلك يقول حسان بن ثابت رضى الله عنه :

وكل أخ يقول أنا وفى ولكن ليس يفعل ما يقول
سوى خل له حسب ودين فذاك لما يقول هو الفعول

والناس معادن، فاختر للأخوة أجودها وأصفاها، فقديما قيل: الرجال كالشجر : شرابه واحد ، وثمره مختلف، ورحم الله القائل :

بنو آدم كالنبت ونبت الأرض ألوان
فمنهم شجر الصند ل والكافور والبان
ومنهم شجر أفض ل ما يحمل قطران

التعليم الدينى (١)

الدين أساس كل الفضائل ، ومنبع النور والحكمة ، فيه العصمة من الزلل ، والوقاية من التردى فى مهاوى الشقاء والهلاك، ما تمسك به إلا سعيد، وما نأى عنه إلا شقى طريد. بتعلم الدين والتمسك بآدابه ساد أوائلنا الأماجد، ونشروا للعالم مدنية فاضلة وأخلاقا سامية، وعزة عالية ، إذ الدين يجمع فى أصوله وفروعه سعادة الدنيا والآخرة ، فهو جمال لمن يريد التجمل، وكمال لمن يبغى الكمال ، وحلية للنساء والرجال. وإن المرء مهما بلغ فى علوم ظواهر الكون من كيمياء وعلم طبقات الأرض وجغرافيا وفلسفة وغيرها ، فليس بمغنيه ذلك عن علوم الدين شيئاً، إذ ليس فى هذه العلوم ما يهذب النفس ويصفى الروح ويربى الخلق . ولعمر الحق ما الدين إلا قانون وضعه العليم بطبائع

(١) كتب هذا الموضوع فى سنة ١٩٢٧ في الطبعة الأولى وأعيد فى الطبعتين الثانية والثالثة ونعيده الآن للتاريخ

الخلق ، الخبير بمصالحهم ليسيروا على ضوئه ، ويهتدوا بهديه ، فينتظم حالهم ، ويسعد مآلهم ، ويدرك كل إنسان ماله وما عليه من أمور دنيوية ، وواجبات أخروية .

وإن مما يؤلم النفس أن نرى شباب الإسلام فى الجامعة المصرية يلح فى وجوب تعليمه أمر دينه ، بعد أن لمس الخطر المحدق بالأمة فى آدابها وأخلاقها ، وانهيار صرح الفضيلة ، وانتشار كل مرذول ومنكر بين أمة إمامها القرآن ، ونبيها محمد صلوات الله وسلامه عليه ، وبعد أن عرف أن الأمم بآدابها وأخلاقها ، وأن لا عصمة من الوقوع فى مزالق الشر إلا بالاعتصام بحبل الدين ، فهو الدواء والشفاء ، بل بالدين يتقدم العمران ويسعد الانسان ، وبغيره يصبح الأمر فوضى ، ومثل جماعة بغير دين ، كمثل قطيع من الغنم تتناوشها الذئاب من كل ناحية وكل مكان .

مما يؤلم النفس أن هذا الشباب المثقف الذى أدرك بعين بصيرته وجوب تعليم الدين فى كليات الجامعة للبنين والبنات ، لا يجد من يستجيب لرغبته الكريمة ، ولا من يشجعه على معرفة دينه بحجة أن الجامعة المصرية لم تنشأ لتعليم الدين ، وإنما خلقت للفنون والآداب ، وأن الدين للأزهر وهو مفتوح على مصراعيه لمن أراد .

وإنى أقول إن هذه الحركة المباركة التى تشعر بغيرة الشبان على دينهم ، ورغبتهم فى الارتشاف من محاسنه ، لن تذهب سدى بل سنرى آثارها وثمارها فى القريب ، وقد فهم رجال الثورة أثر الدين فعملوا على نشره فى المدارس والجامعات ، وهم إن أرادوا تكوين قوة

لا تغلب فليسلحوا شباب الأمة بسلاح الدين . فقديما قال رب العالمين لنبيه الكريم « يأيها النبي حرض المؤمنين على القتال ، إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين ، وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفا من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون » . ويقول فى آية أخرى « والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقاً ، لهم مغفرة ورزق كريم » .

فالدين سلاح الأمم ، وعنوان حياتها وعزها وسعادتها ، أدرك هذا المسلمون الأول فعملوا بالإسلام فأعزهم الله ومكن لهم فى الأرض وجعلهم سادة العالمين . ولن يكون للمسلمين عز ومجد إلا إذا عادوا إلى العمل بدينهم واعتصموا بكتاب ربهم .

اختلاط الجنسين (١)

تفرع عن وجوب تعليم الدين فى الجامعة المصرية مسألة لزوم التفريق بين الشبان والفتيات فى أماكن الدراسة . وكما طالب شبان الجامعة بوجوب تعليم الدين طالبوا بوجوب التفريق بين الطلبة والطالبات فى حجر التدريس صيانة للأخلاق والآداب ، واتباعا لعادات الشرق واستمساكا بالدين الذى يحتم عزل الطلبة عن الطالبات حفظاً للأعراض وقطعا لوسوسة الشيطان ، وسداً لطرق الغى والضلال ، ومحافظة على الشرف والعفة . فاستبشرنا بهذه الروح الطيبة ،

(١) كتب هذا الموضوع فى سنة ١٩٣٧ وفى الطبعة الثانية والثالثة ونعيده فى هذه الطبعة للتذكير

وتمنينا لها النجح والفوز، غير أن بعض من تنكروا لآداب الإسلام وأولعوا بتقليد الغربيين فى مدنيتهم الفاسقة ، أفزعتهم هذه النهضة المباركة، فوقفوا فى وجهها وتصدوا لمحاربتها، ولكن بسلاح المغالطة فزعم كبيرهم أنه لا يعرف نصاً فى كتاب الله ولا فى سنة رسول الله يحرم اجتماع الفتيان والفتيات حول أستاذ يعلمهم العلم والأدب .

ومسألة وجوب التفريق بين الطلبة والطالبات فى أماكن الدراسة لو لم يرد الدين بها لحكم بها العقل والعرف والتجارب : إذ كيف يجمع بين حطب ونار ، ونقول للنار لا تشتعلى ؟ !

وإن التعليم والتهذيب مهما بلغ من شأنهما لن يكبحا جماح العاطفة . ومع كثرة الاختلاط لابد من تغلب العاطفة على العقل ، وهنا السقوط والعار ، والخزى والشنار .

وإنى أسوق لحضرات القراء الكرام بعض آيات الكتاب الكريم وبعض أحاديث عن النبى الكريم تنص على تحريم اجتماع الفتيان والفتيات على أى نحو كان ، نصاً لا يحتمل تأويلا :

يقول الله تعالى « قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ، ذلك أزكى لهم » . ولا يعقل إنسان أن يجلس فتى بجوار فتاة على كرسى واحد ولا ينظر إليها إلا إن كان أعمى البصر .

ويقول جل شأنه فى آية أخرى: «وإذا سألتموهن متاعا فاسألوهن من وراء حجاب ، ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن » . وإذا كان سؤال المرأة المتاع يجب أن يكون وبينهما حاجز ، فهل يقول عاقل إنه

لاضرر من الاختلاط ! اللهم إن ضرر الاختلاط لا يخفى إلا على من طبع الله على قلوبهم وأعمى أبصارهم ، إذ ميل الذكر للأنثى وميل الفتاة للفتى من تكوين خلقتهما ، ولا سبيل لدفع هذا الميل إلا بحجب الواحد عن الآخر . ولذا أمر الله النساء بغض أبصارهن عن الرجال كما أمر الرجال بغض أبصارهم عن النساء : « وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن » الآية . فكما يحرم على الرجل النظر إلى المرأة التي لا تحل له ، كذلك لا يحل للمرأة أن تنظر إلى رجل لا يحل لها ، بل ربما يكون نظرها إلى الرجل أشد خطراً وأبعد أثراً .

ويكفينا من الآيات ما تقدم لنذكر لك طرفاً من أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم تنص على التحريم . وأحب أن أبدأك بقول فاطمة الزهراء بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم حينما سألها والدها صلوات الله عليه قائلا لها « أي شيء خير للمرأة » فقالت : أن لا ترى رجلا ولا يراها رجل ، فضمها إلى صدره ، وقال « ذرية بعضها من بعض » وعن ابن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم « نهى أن يسير الرجل بين المرأتين » هذا في الطريق ، فكيف لو كان في مكان الدرس فتاة عن يمين الشاب وأخرى عن شماله ! بل استمع معي إلى هذا الحديث القاطع بوجوب التفريق بين الرجال والنساء في دروس العلم : روى البخاري ومسلم واللفظ لمسلم قال : « جاءت امرأة إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقالت : يا رسول الله ذهب الرجال بحديثك فاجعل لنا من نفسك يوماً نأتيك فيه تعلمنا مما

علمك الله ، قال اجتمعن يوم كذا وكذا ، فاجتمعن فأتاهن رسول الله صلى الله عليه وسلم فعلمهن مما علمه الله » .

فلو كان اختلاط الرجال والنساء حول أستاذ يعلمهم الفن والعلم والأدب جائزاً لما خصص الرسول الأكرم لهن مجلساً خاصاً يرشدهن فيه إلى أمور دينهن . بل نرى الإسلام يمنع من الاختلاط حتى فى أماكن العبادة ، فللرجال مكان ، وللنساء مكان آخر . فعن ابن عمر رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لو تركنا هذا الباب للنساء » أحد أبواب المسجد . قال نافع : فلم يدخل منه ابن عمر حتى مات . وروى أبو داود فى باب اعتزال النساء فى المساجد عن الرجال ، عن عمر رضى الله عنه أنه « كان ينهى أن يدخل من باب النساء » . وهناك ماهو أصرح مما تقدم من اعتزال النساء للرجال فى المساجد ، فعن ابن عباس رضى الله عنه قال : « شهدت صلاة الفطر مع النبى صلى الله عليه وسلم وأبى بكر وعمر وعثمان فكلهم يصليها قبل الخطبة ثم يخطب ، قال : فنزل نبى الله صلى الله عليه وسلم كأنى أنظر إليه حين يجلس الرجال بين يديه ، ثم أقبل يشقهم حتى جاء النساء ومعه بلال ، فقال : « يأيها النبى إذا جاء المؤمنات يبايعنك على ألا يشركن بالله شيئاً » فتلا هذه الآية حتى فرغ منها ثم قال : أنتن على ذلك ؟ فقالت امرأة واحدة لم تجبه غيرها منهن : نعم يا نبى الله ، قال : فتصدقن ، فبسط بلال ثوبه ثم قال : « هلم فِدىً لكن أبى وأمى » فجعلن يلقين الفتخ والخواتيم فى ثوب بلال » رواه البخارى ومسلم .

ولا أدرى كيف يوفق من يدعى إباحة الاختلاط بين زعمه وبين قول الرسول الأكرم صلى الله عليه وسلم «لأن يطعن فى رأس أحدكم بمخيط من حديد خير له من أن يمس امرأة لاتحل له» وكذا قوله صلوات الله عليه «لأن يزاحم رجل خنزيراً متلطخاً بطين أو حمأة خير له من أن يزاحم منكبه منكب امرأة لا تحل له».

وليس من الميسور ولا من الممكن ألا يمس كتف الفتى الفتاة وهما بحجر الدراسة وقاعات المحاضرات.

إن الدين الإسلامى بتحريمه اختلاط الرجال بالنساء وضع حاجزاً منيعاً بين الفضيلة والرذيلة، وبين الصون والابتذال؛ بل إنه إذ شدد فى أمر النساء وبين أن المرأة عورة فإذا خرجت استشرفها الشيطان، وأقرب ما تكون من وجه ربها وهى فى قعر بيتها، — إنما يعمل على احترام المرأة والمحافظة عليها كما يحافظ المرء على جوهرة ثمينة. وقد فهم هذا نساء العصر الأول، فكن بالدين متمسكات، وبالفضيلة معتصمات، ذكر الحافظ بن عبد البر فى الاستيعاب «أن أسماء بنت يزيد بن السكن خطيبة النساء، جاءت وافدة على النبى صلى الله عليه وسلم من قِبل النساء فقالت له: إنى رسول من ورائى من جماعة نساء المسلمين، كلهن يقلن بقولى وعلى مثل رأيى: إن الله تعالى أرسلك إلى الرجال والنساء فآمنا بك واتبعناك، ونحن معشر النساء مقصورات مخدرات قواعد بيوت ومواضع شهوات الرجال وحاملات أولادهم، وإن الرجال فضلوا بالجمعات وشهود الجنائز

والجهاد ، وإذا خرجوا للجهاد حفظنا لهم أموالهم وربيناهم أولادهم أفنشاركهم فى الأجر يارسول الله ؟ فالتفت رسول الله صلى الله عليه وسلم بوجهه إلى أصحابه فقال : هل سمعتم مقالة امرأة أحسن سؤالا عن دينها من هذه ؟ فقالوا : بلى والله يا رسول الله . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم انصرفى ياأسماء وأعلمى من وراءك من النساء أن حسن تبعل إحداكن لزوجها وطلبها لمرضاته واتباعها لموافقته يعدل كل ما ذكرت للرجال فانصرفت أسماء وهى تهلل وتكبر استبشاراً بما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

فانظر فى قولها رضى الله عنها : نحن معشر النساء مقصورات مخدرات قواعد بيوت ومواضع شهوات الرجال، تجد أنها ذكرت الواقع ، وأقرها النبى صلى الله عليه وسلم على ذلك ، فمنع اختلاط الرجل بالمرأة لكون المرأة موضع شهوة الرجال ، فلا صبر ولا عقل عند الاختلاط ، بل السلامة كل السلامة فى التفريق بين الرجال والنساء والطلبة والطالبات . ومن يقل غير هذا يخالف الواقع وينكر المشاهد ويعص الله ورسوله ، وله فى الدنيا خزى وفى الآخرة عذاب عظيم. ويجرنا الكلام على ضرر اختلاط الفتيان بالفتيات ، إلى الكلام عن :

السفور والحجاب

كثر الجدل حول إباحة السفور للمرأة أو وجوب الحجاب لها وليس هذا الجدل بالحديث ، بل قد تنازعت فيه طائفتان : طائفة

السفوريين الذين يبيحون اختلاط الرجال بالنساء، وإعطاء الحرية المطلقة للمرأة، ولو كان فى ذلك ضياع الشرف والعفاف؛ وهم فى ذلك يقلدون الأفرنج ويسيرون وراءهم فى هذا الميدان، إشباعا لشهواتهم، ولو كان فى ذلك مخالفة صريحة للدين، ومحاربة لله رب العالمين. وهذه الطائفة بدعوتها الطائشة تريد قلب نظام الأسرة، وتقويض دعائم البيوت، وتعمل على تمرد المرأة ضد الرجل وضد المجتمع. وهذا ما حدث، فهذه جمعيات من النساء تطالب بمساواة المرأة للرجل حتى فيما نص الدين فيه نصاً صريحاً لا يحتمل تأويلا على التفريق بين المرأة والرجل كمسألة الميراث. ولهذه الجمعيات النسوية مطالب لن تنتهى: منها المطالبة بوجوب انتخابهن أعضاء فى البرلمان، وفى مجالس المديريات، وتوليهن القضاء، ومشاركتهن للرجال فى سائر الأعمال. وحالُ هذه الجمعيات ينطق بأن على الرجال تربية الأولاد، وتنظيف البيوت، وإعداد الطعام، والقيام بكل الشئون المنزلية، وعلى الرجل إذا حضرت حضرة النائبة أو القاضية أن يقدم لها الغذاء ويهيء لها القهوة، ويعد لها المخدع لتستريح من مشاق الأعمال... كل هذه الأوهام والخيالات جرها إلى النساء حماقة الإباحيين الذين دعوا المرأة إلى السفور ونبذ الحجاب. ولقد كانت المرأة فى ماضى السنين اللؤلؤة المكنونة، والجوهرة الثمينة، فأصبحت كما ترون المبتذلة المتهتكة، الخليعة المستهترة، ترمقها الأنظار وتعافها القلوب، وأضرب الشبان عن

الزواج لما رأوا أن المرأة تهتكت وخلعت برقع الحياء ، ووجد الشباب فى سفور المرأة وتبرجها من ضروب المتع والملذات ما صرفه عن التفكير فى الزواج . وهذه حال إن لم يتداركها أولو الأمر فينا بالعلاج الحاسم والقضاء على التبرج والخلاعة . بسن القوانين الرادعة أقول إن لم يفعل أولو الأمر هذا تضيع كرامة الأمة ويذهب خلقها ودينها ، ويصبح أمرها فوضى ، ولن يستقيم نظام وخلق الأمة فى اضطراب ودينها إلى ذهاب ، طائفة السفوريين دعت إلى الفساد ، والله لا يصلح عمل المفسدين .

والطائفة الثانية : هى الطائفة التى دعت إلى وجوب الحجاب وصون المرأة وإعزازها ، والبعد بها عن مزالق الشياطين ، ومواضع الريب والظنون ، وذلك لا يكون إلا بتمسكها بآداب دينها ، والعمل بكتاب ربها ، والتفرغ لتربية أولادها ، وتنظيم شئون بيتها وإسعاد زوجها ، وخدمة أمتها بتنشئة بنيها على الفضيلة وحب الوطن . أما سفورها وتبرجها وتوليها من الشئون ما لم تخلق له فهذا قلب للنظام يوجب للأمة الارتباك ، ويوقعها فى حيرة من أمرها ، ويصرف الرجال عن الزواج وإخراج نشء صالح للأمة . بل أقول إن مشاركة المرأة للرجل فى الأعمال وخروجها على الآداب والأخلاق بتبرجها وسفورها ، يحدث الفساد فى البلاد ، ويوقع نار العداوة والبغضاء بين الناس .

وإنى أنقل لك كلمة عن رجل نُعت بنصير المرأة والمدافع عنها

وهو الذى نادى بالسفور وطرح الحجاب ، وأثار فتنة عمياء تصلى الأمة نارها وتجنى وخامة عاقبة دعوته المضلة: ذلك الرجل هو قاسم أمين بك ، وهذه الكلمة التى أنقلها عنه قالها رداً على الدوق داركور الذى عاب المرأة المسلمة وتهكم على الحجاب فى الشريعة المحمدية . وأحسب أن قاسم بك أمين قال هذه الكلمة قبل أن يركب رأسه ، ويتبع هواه ، ويكابر فى الحق بعد ما تبين .

قال تحت عنوان (دواعى الغرام) « إن المرأة والرجل عند الغربيين فى اختلاط دائم مع بعضهما وتلازم مستمر ، ذلك بالطبع داعية التعارف ، وسبب فى تأكيد روابط المحبة والائتلاف والتعلق — وذكر مشاهدات وقعت له فى أوربا ، أرى من الحكمة عدم الإشارة إليها — ثم قال : ويخيل للإنسان أن من العادات المقررة عند الغربيين أن من منح نعمة أو قسم له حظ من الحظوظ ، لا يصح أن يختص بما نال وحده ، بل يجب عليه أن يشرك غيره فيه. وكذلك الرجل المتزوج بامرأة جميلة يصير موضوع انتقاد عام إن حاول الاستئثار بها ولم يسمح لها بالاشتراك هى أيضاً فى مؤانسة أصحابه وخلانه .

« ومن المعلوم أن هؤلاء الأصحاب يمازحون امرأة صاحبهم هذه ويضاحكونها ويجتهدون فى استعطافها وجذب قلبها إليهم ، يواظبون على استمالتها واستهوائها ، وزوجها يرى ذلك ولا يعبأ بما يفعلون ، بل يهمل أمرهم ، فإن منهم من هم أصحابه من الصغر ولا

شيء فى الأمر إلا أنه مجرد مزاح ومضاحكة بسيطة، وفى هذه الأثناء تراه هو أيضاً يأتى مثل هذه الأمور نفسها مع نساء أزواج آخرين حفظاً للتكافؤ، فكل زوج يأخذ ويعطى حتى لا يحرم واحد من التلذذ والتمتع، ليكون السرور متبادلا، والأنس محبوك الطرفين.

« ولكن هل يمكن القطع بأن هذه العلاقات يتبعها على الدوام ارتكاب المعصية أو إتيان منكر؟ هذا مما لا يصح الجزم به فى المجموع إذ مما لا نزاع فيه أنه توجد بين هذه النفوس نفوس أبية فاضلة تحافظ على عفتها، وتحفظ قوى إرادتها. ولكن كم بجانب هذه النفوس الشريفة من نفوس غيرها تزل، كم من شرف يجرفه هذا التيار، وكم من قلوب تستهويها هذه المداعبات وتصيبها سهام تلك الملاعبات، ويقهرها سلطان الشيطان ... إلى أن قال: وغنى عن البيان أننا معشر الرجال فى الحقيقة خطفة قلوب، وسلابة ألباب! . وإنى أستميح أبناء جنسى العذر فى هذا الكلام، فإن الرجل منا لا يترك بابا يوصله لغرضه من استهواء فؤاد من مال إليها والاستحواذ عليها إلا طرقه، وإن استدعى ذلك ما استدعى من التحايل أو الكذب أو ارتكاب الدنايا، ولو لم يكن مدفوعاً إلى ذلك بسلطان الشهوة وقوة الغرام وقد يستقبل الصديق صديقه فى بيته أحسن استقبال ويؤاكله ويبالغ فى إكرام مثواه ويحسن إليه فلا يكون منه إلا أن يقابل هذه المكارم كلها بخيانته فى أعظم شيء شريف لديه ويصيبه فى

أخطر مقاتله . يقدم الإنسان عل هذا العمل السافل بدون أن يفكر لحظة فى شر عاقبة ماهو مقدم عليه ، ولامقدار ما يصيب به شرف غيره ، بل تراه دائماً مقبلا على الأمر لا يردعه عنه زاجر ولا يزعه وازع ، وكلما اعترضه عائق ازداد إقداماً وقحة للوصول لغرضه ، ولإحراز إكليل الفوز والنصر ، وبئس النصر هو حيث إن غايته إتمام أمر هو كل الخسة والسفالة . . ثم قال :

« إذا علم ذلك فهل يتأتى تقريب الرجل من المرأة ، وتسهيل اختلاطهما بدون المخاطرة بصفو العائلات والعبث بالآداب والأعراض ! فجواب ديننا القويم على ذلك : أن لا ! ولذلك أمرنا بالحجاب ، بأن تكون مجامع الرجال خاصة بهم ، ولا يجوز أن تحضرها امرأة أجنبية عنهم ، كما أمر النساء أن يجتمعن ببعضهن وحدهن ، ولا يحضر رجل فى مجتمعاتهن . وقد قصد الدين بذلك أن يحفظ كلا من الرجال والنساء من نتيجة ضعفهما ، وأن يسد أبواب الفتنة والمفسدة ويستأصل الداء من جذوره ، لأنه إذا قيل إن الفرصة تعلم السرقة ، فإنها تقود كذلك إلى الزنا . . .

ثم استرسل فى ذكر عادات الغربيين كخروج المرأة سافرة الوجه غير مستورة الكتفين والذراعين ، تراقص من تشاء ، وتغازل من تهوى على مرأى من زوجها ، وعجب من برودهم وعدم تحرك عوامل الغيرة فى نفوسهم — ثم قال : وبعكس العادات الغربية

التى يظهر أنها وضعت لتعميم اللذات فى هـذا العالم ، عالم النـكد والشقاء ، والإكثار من دواعيها فيه ، بنيت عاداتنا ، معشر الإسلام على مبادىء الفضيلة والعفاف ، ولا يخفى أنهما عدوا اللذات والرفاهية والترف ، فلا يمكن أحداً أن يجمع بين المتضادين لأن الجمع بينهما محال ، فاخترناهما على التمتع بهذه الملذات . وها هو قـد مضى على المسلمين زيادة عن ألف وثلثمائة عام وهم متبعون هـــذا الطريق مفضلون الفضيلة على شهوة النفس ، فصار ذلك عادة فيهم جبلية لا ينكفون عنها . . . »

واختتم هذا الموضوع بكلمتين إحداهما لفضيلة الإمام المرحوم الشيخ محمد عبده ، والثانية لتلميذه العالم المرحوم صاحب المنار السيد رشيد رضا ، جاء فى صحيفة ٦٥ من نهج البلاغة جزء أول من كلام الأستاذ الشيخ محمد عبده ما نصه :

« خلق الله النساء لتدبير أمر المنزل ، وهو دائرة محدودة يقوم عليهن فيها أزواجهن ؛ فخلق لهن من العقول بقدر ما يحتجن إليه فى هذا ؛ وجاء الشرع مطابقاً للفطرة ، فكن فى أحكامه غير لاحقات للرجال لا فى العبادة ولا الشهادة ولا الميراث » .

وقال السيد رشيد رضا من مقالة عنوانها (كلمة فى الحجاب) ما نصه « والذى نراه نحن فى المسألة أن التربية والتعليم لا يتوقفان على كشف الوجه ، ولـكنهما يتوقفان فى كمالها على مكالمة الرجال

ومبادلتهن الأفكار والأقوال ، وربما كان فى الأقارب غنية عن الأجانب — إلى أن قال . .

« العلماء متفقون على وجوب الستر ، لا استحبابه ، عند خوف الفتنة . أما الضرورات فإنها تقدر بقدرها ، وتجرى على قاعدة « يرتكب أخف الضررين » وهى من القواعد الشرعية العقلية التى لا تختلف باختلاف الزمان والمكان . . . »

وبعد فإن فى السفور خطراً على الأخلاق والآداب والأعراض وفى الحجاب الصون والعفاف ، وما يتذكر إلا أولو الألباب ، وليس على العلماء إلا البلاغ ، والله يتولى الجزاء والحساب .

لماذا لا يجاب الدعاء

قيل لإبراهيم بن أدهم : ما بالنا ندعو فلا يستجاب لنا وقد قال الله تعالى « ادعونى أستجب لكم » ؟ قال : لأن قلوبكم ميتة . قيل : وما الذى أماتها ؟ قال : ثمان خصال :

عرفتم حق الله ولم تقوموا بحقه ، وقرأتم القرآن ولم تعملوا بحدوده ، وقلتم نحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم تعملوا بسنته ، وقلتم نخشى الموت ولم تستعدوا له ، وقال تعالى « إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً » فواطأتموه على المعاصى ، وقلتم نخاف النار وأرهقتم أبدانكم فيها ، وقلتم نحب الجنة ولم تعملوا لها ، وإذا قمتم من فراشكم رميتم عيوبكم وراء ظهوركم وافترشتم عيوب الناس أمامكم فأسخطكم ربكم ، فكيف يستجيب لكم ! » .

الدعاء

كثير من الناس ينسى خالقه ورازقه مادام فى سعة من العيش والصحة والسلامة ، فإذا نزلت به نازلة أو أهمه أمر من أمور دنياه ، رأيته تذكر ربه وتضرع إليه ، وسأله كشف ما نزل به . ويصور هذا تمام التصوير قول الله تعالى « وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً . فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا إلى ضر مسه . . . »

عجيب حال الإنسان مع ربه ؛ يغدق عليه النعم فينساه ويذكر غيره ، فإذا نزلت به شدة لم يجد من يلجأ إليه سوى مولاه الذى أسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة . فيجمل بالعبد أن يكون دائما على ذكر من مولاه ، يدعوه فى الرخاء كما يلجأ إليه فى الشدة ، لأنه الذى بيده كل شىء ، والقادر على كل شىء ، يجيب دعوة الداعى إذا دعاه ما استجاب له وآمن به ، قال تعالى « وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب ، أجيب دعوة الداع إذا دعان ، فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون » والدعاء مخ العبادة كما يقول النبى الكريم صلى الله عليه وسلم . وقد طلب الله من عباده أن يسألوه حوائجهم ولا يسألوا أحداً غيره :

لا تسألن بنى آدم حاجـــة وسل الذى أبوابه لا تحجب
الله يغضب إن تركت سؤاله وبنى آدم حين يسأل يغضب

ولقبول الدعاء شروط ؛ منها أن يتوب العبد من آثامه ، وأن

يكون مطعمه وملبسه ومشربه من حلال . فإذا أضاف إلى ذلك خشوع القلب ، واستقبال القبلة ، وكان على طهارة ، وقدم بين يدى دعائه صدقة ، وصادف وقتاً من أوقات الإجابة الستة ، وهى الثلث الأخير من الليل ، وعند الأذان ، وبين الأذان والإقامة ، وعقب الصلوات المفروضة ، وعند صعود الإمام يوم الجمعة على المنبر حتى تقضى الصلاة، وآخر ساعة بعد عصر يوم الجمعة، وبدأه بالثناء على الله والصلاة والسلام على رسول الله؛ فإن هذا الدعاء لايكاد يرد أبداً.

والدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل ، وهو عدو البلاء ، يدافعه ويمنع نزوله ، ويرفعه ، أو يهون أمره إذا نزل . فالمؤمن يتخذه سلاحا يحارب به البلاء .

فعن على كرم الله وجهه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الدعاء سلاح المؤمن، وعماد الدين، ونور السموات والأرض » .

وللدعاء مع البلاء ثلاث حالات كما يقول الإمام ابن القيم فى الجواب الكافى:

أحدها : أن يكون أقوى من البلاء فيدفعه .

الثانى : أن يكون أضعف من البلاء فيقوى عليه البلاء فيصاب به العبد ، ولكن قد يخففه وإن كان ضعيفاً .

الثالث : أن يتقاوما ويمنع كل واحد منهما صاحبه .

وروى الحاكم فى صحيحه من حديث عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يغنى حذر من قدر والدعاء ينفع مما لم ينزل ومما لم ينزل ، وإن البلاء لينزل فيلقاه الدعاء

فيعتلجان إلى يوم القيامة ، وفيه أيضاً عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « الدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل فعليكم عباد الله بالدعاء » . وفيه أيضاً عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « لا يرد القدر إلا الدعاء ولا يزيد في العمر إلا البر ، وإن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه » .

وقد يقال إننا ندعو فلا يستجاب لنا ، فهل لهذا من سبب ؟ والجواب : أن هناك موانع من إجابة الدعاء ، منها أن يدعو بإثم (معصية) كأن يقول يارب مكني من فلان لأقتله ، أو من فلانة لأفسق بها ، أو خرب بيت فلان ويتم أطفاله ، أو يدعو بقطيعة رحم ، أو يستعجل الإجابة كأن يقول : دعوت ربي فلم يستجب لي ، أو يكون مأكله أو ملبسه حراما . فكل هذه الأمور وما أشبهها تمنع من إجابة الدعاء . وعند إجابة الدعاء قد يعطي الله السائل عين ما سأل لعلمه تعالى أن في ذلك مصلحته ، وقد يعطيه مثله إن علم المصلحة في غيره ، وقد يدخر له ثواب ذلك في الآخرة .

وما أجل وأروع الدعاء إذا غارت النجوم ، ونامت العيون ، والتجأ الداعي إلى الحي القيوم ، في تذلل وخضوع ، ورهبة وخشوع يسأله سؤال المحتاج الفقير ، ويدعوه دعاء المضطر الذليل ، الذي لا يرجو سواه ، ولا يبغي الخير إلا من جناب مولاه ، لزم بابه فلا يتحول عنه ولا يريم ، موقناً أنه مجيب دعاه ، ومعطيه متمناه ، فالخير بيده ، وهو الكريم الذي يقضي حوائج السائلين ، ويفرج كرب المكروبين ، ويغيث المستغيثين ، ويرحم أهل البلاء ، ويجود بالمغفرة على التائبين ، لا إله إلا هو الرحمن الرحيم .

والآن وقد علمت منزلة الدعاء، وأن الله يحب من عبده أن يدعوه ويسأله حاجاته ويلجأ إليه فى الشدة والرخاء — أسوق إليك طائفة من الأدعية المأثورة فى تفريج الكربات، وتحقيق الرغبات، وقضاء الحاجات:

فمن ذلك ما روى فى السنن وفى صحيح ابن حبان، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سمع رجلا يقول: اللهم إنى أسألك بأنى أشهد أنك أنت الله لا إله إلا أنت الأحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد، فقال صلى الله عليه وسلم: لقد سأل الله بالاسم الذى إذا سئل به أعطى، وإذا دعى به أجاب. وفى لفظ: «لقد سألت الله باسمه الأعظم».

وفى مسند الإمام أحمد وصحيح أبى حاتم بن حبان من حديث أنس بن مالك، أنه كان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم جالساً ورجل يصلى ثم دعا فقال: اللهم إنى أسألك بأن لك الحمد لا إله إلا أنت المنان، بديع السموات والأرض، ياذا الجلال والإكرام يا حى يا قيوم، فقال النبى صلى الله عليه وسلم: «لقد دعا الله باسمه العظيم الذى إذا دعى به أجاب، وإذا سئل به أعطى».

وفى جامع الترمذى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: «اسم الله الأعظم فى هاتين الآيتين: وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم، وفاتحة آل عمران: الم. الله لا إله إلا هو الحى القيوم» قال الترمذى: هذا حديث صحيح.

وفى مسند أحمد وصحيح الحاكم أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: «ألظوا بياذا الجلال والإكرام» أى تعلقوا بها وداوموا عليها.

وكان النبى صلى الله عليه وسلم إذا أهمه أمر قال: «ياحى ياقيوم

برحمتك أستغيث ، وفى البخارى ومسلم من حديث ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول عند الكرب « لا إله إلا الله العظيم الحليم ، لا إله إلا الله رب العرش العظيم ، لا إله إلا الله رب السموات ورب الأرض ، رب العرش العظيم » وفى جامع الترمذى عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « دعوة ذى النون إذ دعا وهو فى بطن الحوت « لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين » إنه لم يدع بها مسلم فى شىء قط إلا استجاب الله له». وفى صحيح الحاكم أن سعد بن أبى وقاص سمع النبى صلى الله عليه وسلم وهو يقول « هل أدلكم على اسم الله الأعظم ؟ دعاء يونس » فقال رجل يارسول الله هل كان ليونس خاصة ؟ فقال : ألا تسمع قوله تعالى « فاستجبنا له ونجيناه من الغم ، وكذلك ننجى المؤمنين». فأيما مسلم دعا بها فى مرضه أربعين مرة فمات فى مرضه ذلك أعطى أجر شهيد، وإن برىء برىء مغفوراً له» وذكر ابن أبى الدنيا عن الحسن قال : كان رجل من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم من الأنصار، يكنى أبا مغلق ، وكان تاجراً يتجر بمال له ولغيره ، يضرب به فى الآفاق ، وكان ناسكا ورعا ، فخرج مرة فلقيه لص مقنع فى السلاح قال له ضع ما معك ، فإنى قاتلك ، قال : فما تريد إلا دمى ، فشأنك والمال . قال : أما المال فلى ولست أريد إلا دمك . قال : أما إذ أبيت فذرنى أصلى أربع ركعات . قال : صل ما بدا لك فتوضأ ثم صلى أربع ركعات فكان من دعائه فى آخر سجدة أن قال: يا ودود

يا ذا العرش المجيد ، يا فعالا لما تريد ، أسألك بعزك الذى لا يرام وبملكك الذى لا يضام ، وبنورك الذى ملأ أركان عرشك ، أن تكفينى شر هذا اللص، يا مغيث أغثنى، يا مغيث أغثنى، ثلاث مرات فإذا هو بفارس أقبل بيده حربة قد وضعها بين أذنى فرسه ، فلما بصر به اللص أقبل نحوه فطعنه فقتله ، ثم أقبل إليه فقال: قم فقال من أنت بأبى أنت وأمى فقد أغاثنى الله بك اليوم. فقال: أنا ملك من أهل السماء الرابعة، دعوتَ فسمعت لأبواب السماء قعقعة، ثم دعوت بدعائك الثانى ، فسمعت لأهل السماء ضجة ، ثم دعوت بدعائك الثالث فقيل لى : دعاء مكروب . فسألت الله أن يولينى قتله » .

قال الحسن : فمن توضأ وصلى أربع ركعات ودعا بهذا الدعاء استجيب له مكروبا كان أو غير مكروب .

واعلم أخى وفقك الله للخير أن من ألهم الدعاء فإن الإجابة معه ، فقد كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول : إنى لا أحمل هم الإجابة ، ولكن هم الدعاء .

ونختم هذا الفصل بقول النبى العظيم صلى الله عليه وسلم: « اللهم ارزقنى حبك وحب من أحبك وحب من يقربنى إلى حبك اللهم إنى أسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى. اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عنى ، ياحى ياقيوم برحمتك أستغيث» . وصلى الله تعالى وسلم على سيدنا ومولانا محمد ورضى الله عن أصحابه ومن تبعه . اللهم احشرنا فى زمرته، وأمتنا على ملته ، واختم لنا بالخير يا أرحم الراحمين.

فهرست

الموضوع	الصفحة	الموضوع	الصفحة
تصدير الكتاب	٤	فضل الصلاة فى المساجد ...	٥١
خطبة الكتاب	٦	من أم بالناس فليخفف ...	٥٣
عظمة فتى الصحراء ...	٨	صل فإنك لم تصل	٥٣
عفوه عند المقدرة	١٠	تسوية الصفوف	٥٥
رحمته وبره	١٣	فضل الصف الأول... ...	٥٥
شجاعته وقوة عزيمة ...	١٥	صلاة الجمعة	٥٦
إن الدين عند الله الاسلام	١٧	إلى المترفين	٥٧
القسم الأول من منهاج الاسلام	١٩	صلاة المسافرة	٥٩
إثبات المعاد	٢٢	صلاة التطوع	٦٠
شقيق البلخى وتلميذه حاتم	٢٤	السهو فى الصلاة	٦٠
إذا سألت فاسأل الله ...	٢٨	الأذان	٦٢
الثلاثة الذين انطبق عليهم الغار	٢٩	كرامة سيدنا محمد عند ربه	٦٦
القسم الثانى من منهاج الاسلام	٣٢	الاستسقاء	٦٦
الوضوء	٣٣	فكاهة وعظة	٦٨
كيفية الوضوء	٣٤	الصيام	٦٩
كيفية الغسل	٣٦	الزكاة	٧٢
الصلاة	٣٦	الحج	٧٤
أجنبى يشيد بفضل الصلاة فى الاسلام	٤١	أعز الناس وأغناهم وأقواهم	٧٧
		القسم الثالث من منهاج الاسلام	٧٩
أوصيكم بالصلاة	٤٤		
السعيد فى يومه	٤٥	عوامل رقى الأمم	٧٩
كيفية الصلاة	٤٦	العامل الأول : الاقتصاد ...	٨٠
صلاة المريض	٤٨	العمل	٨٠
التشهد	٤٩	حسن الصلة بين الأفراد ...	٨٢
ما يقول المصلى بعد تكبيرة الأحرام	٥٠	التوصل فى مرافق الحياة	٨٢
		العامل الثانى : سياسة الأمة	٨٤
وضع اليدين فى الصلاة ...	٥١	العامل الثالث : فى وقى الأمم	٩٠

الموضوع	الصفحة	الموضوع	الصفحة
الأخلاق	٩٠	الآداب العامة	١٢٤
الشجاعة	٩٠	واجبات والزوجين	١٢٤
العفة	٩٣	صلة الأرحام	١٢٧
العدل	٩٤	حقوق الآباء على الأبناء ...	١٢٩
الحكمة	٩٧	حقوق الأقارب	١٣١
الصبر	٩٨	إزالة الهموم والأحزان ...	١٣٣
الصدق والصراحة	٩٩	الأصدقاء والإخوان ...	١٣٤
شهادة الزور	١٠٠	الاخوان	١٣٥
حكاية صوفى	١٠٣	التعليم الدينى	١٣٨
السماحة	١٠٤	اختلاط الجنسين	١٤٠
الحرص والطمع	١٠٥	السفور والحجاب	١٤٥
الحياء	١١٠	لماذا لا يجاب الدعاء	١٥٢
المروءة	١١٤	الدعاء	١٥٣
الآداب	١٢٠		

انتظروا قريباً للمؤلف

كتاب مواكب الأفراح إلى عالم الأرواح

من موضوعاته — أين الروح بعد مفارقة الجسد — مخاطبة الأرواح — سعادة الروح وشقاؤها وكل ما يتعلق بالحياة الثانية فى البرزخ والحشر

تطلب جميع مطبوعاتنا من :

دار المعارف	اسكندرية ت ٢٣٥٨٨
المكتب التجارى	بيروت ت ٢٤٥٠٣
دار الثقافة	بيروت ت ٣٠٥٦١
دار اليقظة العربية	دمشق ت ١٢٢٦٤
مكتبة النهضة	الجزائر ت ٩٩ — ٣٩٨
مكتبة النهضة السودانية	الخرطوم — السودان
دار كردفان	الأبيض — السودان
المكتبة الأدبية	تونس
مكتبة إحياء الكتب	الحجاز

للمؤلف

١ — غذاء الأرواح
٢ — سفينة النجاة
٣ — مواكب الملائكة فى شهر رمضان
٤ — كيف تكون خطيبا
٥ — الأنوار المحمدية فى الخطب المنبرية
٦ — مواكب الأفراح إلى عالم الأرواح « تحت الطبع »
٧ — محاسن الاسلام

مطبعة الاعتماد بمصر ت ٤٥٥٤٥

LIBRARY
OF
PRINCETON UNIVERSITY

Princeton University Library
32101 074497155